أصوات الصمت ٢

أحاديث أدبية

- **المحتويات**

- قبل أن تقرأ ٥
- يحي حقي ١١
- نجيب محفوظ ٦٢
- إحسان عبد القدوس ٧٣
- يوسف إدريس يحاكم كل الناس ٤٧
- الدكتور فؤاد زكريا ٧٨
- لفتحي غانم ١١٤
- الدكتور محمد مصطفى ١٤٢
- نزار قباني ١٥٨
- عبد الوهاب البياتي يتحدث ١٧١
- للدكتور عبد الرحمن منيف ١٨٥
- الرواية والقصة والنقد ١٩٦
- مناضلة فلسطينية ٢١٢
- الدكتور طه حسين يقول ٢٢٢
- جبر إبراهيم جبرا ٢٣٠

قبل أن تقرأ

* من الصعب أن أتذكر الآن، متى وأين جلست لأول مرة، أمام كاتب ومفكر كي أحصل على حديث صحفي؟ تفر هذه المناسبة الهامة – بالنسبة لي – من الذاكرة ولا تبقى حتى ظلالها الباهتة وكم قضيت من الوقت محاو ًلالتذكر ولكني أعترف أنني فشلت.

وإن كان الحديث الأول، الذي يظل دائما هو الحديث البكر، في زمن تتراجع فيه البكارة وتختفي من حياتنا، حتى الأشياء الجميلة، التي كان مصدر جمالها بكارتها، تصر على أن تتخلى عن هذه البكارة.

إن كان الحديث البكر يتوه من الذاكرة، فإن العديد من الأحاديث الأخرى تبقي حية وحاضرة في الذهن.

من الصعب أن أنسى غنائية وعذوبة يحيي حقي ، إن صوته يبدو مثل هديل الحمام في البناني، لا أنسى عزلة وغربة طه حسين عندما ذهبت إليه في العام السابق على وفاته لكي أجري معه حديثا، لا أنسى ذلك القدر غير العادي من نضوج فكر الدكتور فؤاد زكريا، ولا توتر يوسف إدريس وقلقه المستمر والدائم والذي خرجت من لقائه وأنا أقول

لنفسي: الفنان كالإعصار إن يهدأ يمت. لا أنسى كبرياء جمال حمدان الذي يدير ظهره لزمان الإعلام الذي نعوم فيه حتى الهامة لأننا جئنا في زمان هاماته ليست مرفوعة أبدا ولا أنسى شجاعة مناضلة فلسطينية بسيطة قابلتها في مستشفى قصر العيني، ولا اهتمام عبد الرحمن منيف بالدقة أكثر من اهتمامه بالوضوح، ولا ذلك القدر الفريد من التنظيم عند نجيب محفوظ.

ما كنت أتصور أنني سأجمع هذه الأحاديث في كتاب، ولهذا عندما حاولت جمعها اكتشفت أنها تعيش في حالة من الشتات وكان جمعها عملاً صعباً للغابة، وقد جمعتها لأنها تشهد على مراحل من التكوين العقلي لي، فقد استفدت كثيرا على المستوى الإنساني والمستوى الأدبي والفكري من الجلوس إلى من ستجلس معهم الآن، أعترف أن هذه الأحاديث أعانتني كثيرًا في وقت كنت أحتاج فيه هذا العين.

أعترف أني عندما بدأت هذه الأحاديث كانت عيني على محاولات سابقة جيدة، كانت في الذهن محاولة أندريه مالرو لكي يحاور ديجول في كتابه الممتع سقوط السنديان وفي الذهن كنت أتمثل محاولة هوتشنر في كتابه: بابا

هيمنجواي وبعد ذلك التقيت بمحاولة معاصرة لنا: هي عزلة ماركيز حيث نجد كتابًا بأكمله عبارة عن حوار مع جارثيا ماركيز.

ما أبعد المسافة بين ما نحلم به وبين ما نستطيع القيام به في النهاية، فالعيب الذي يتسلل إلى هذه الأحاديث أنها تبقى مجرد أحاديث وليست حوارات، إنها منولوجات والمنولوج لغوياً يعني التكلم منفرداً، ولكن الحوار نوع من الجدل والنقاش بين عقليتين يمثل كل منهما وجهة نظر تختلف عن الأخرى تماما، الذي حدث أنها أحاديث، أسئلة تعد مجرد وقفات ولكن على الناحية الأخرى، فإن المتكلم يبقى دائماً هو المتكلم الوحيد.

أعترف أنني اكتشفت عند العودة للتقليب في الدفاتر القديمة، إن دوري كان نقل الجو والوصف ومحاولة إقامة جسر من الألفة بين القارئ والكاتب الذي أجرى معه الحديث، ولكني لم أجد قضايا خلافية أساسية في وجهات النظر كانت تصلح لأن توجد مناسبة محددة لإجراء هذا الحديث، وأعترف أيضاً أنني بذلك أكون قد شاركت، بوعي أو بدون وعي، في ابتذال كتاب كبار، وابتذال معنى وجود

الحوار مع مفكر وكاتب، ولكن مع هذا الاعتراف لا بد من القول إننا نميل إلى هذه المنولوجات لأننا نعيش في جزء من العالم يكره فكرة الحوار ويخشاها وعندما تحدث يجرمها ويعلن عليها الحرب في بعض الأحيان، ونحن أيضاً نعيش في جزء من العالم بكره القضايا المثارة والجدل الفكري ويستريح إلى الأحاديث ذات الطابع الذي يعتمد على السؤال عن الصحة والحال، وحال الجو وإن كنت قد اكتشفت أيضاً أنني لم أفعل هذا.

قمت بهذه الأحاديث – وأنا أدرك أننا – نحن الجبل الذي سمع أول ما سمع دوى الهزيمةفي ٨٤٩١، وتفتح وعيه أول ما تفتح على دوى هزيمة يونيو ٧٦٩١. أدركت أننا جئنا إلى العالم في ذيل عصر عظيم، جئنا في الساعة الخامسة والعشرين من عمر جيل كبير، والمحزن لحد المأساة، إنه في الوقت الذي ركبنا فيه سنين قطار عمرنا لم نتمكن من أن نكون مقدمة لعصر جديد، هذا العصر الجديد لم تكن لديه شجاعة الخروج إلى الوجود. ونحن كنا مسلوبي الإرادة ولم نمد أيدينا لنخرجه من مخاض الميلاد إلى عالمنا، يبدو لي أن الأجيال التي تقبل فكرة الركوب في أواخر

القطارات ليس من حقها الحلم بأن تكون في المقدمة، وهكذا أسلمنا أنفسنا إلى حالة من الإنسكار العام والذي أتوقع له أن يستمر طويلا ربما استمر العمر كله، من يدري!

جمعت هذه الحوارات وأعطيتها عنوانا «أصوات الصمت» تعبيرًا عن تساؤل أطرحه على نفسي كل صباح ولا أجد أي إجابة له: ما جدوى ما أقوم به؟ في زمن تحاصر الكلمة، المكتوبة من الأمام ملايين الأميين، ومن الخلف عصر الإعلام، عصر الفيديو والتليفزيون الذي احتل حتى غرف النوم آخر معاقل الإنسان، في زمن تهاوت فيه كل المعاقل، ما جدوى كل هذا العالم المصنوع من الكلمات في زمن لم يعد فيه للكلمة دور؟ أما توجد هناك أي نهاية لهذا العوم في بحار الكلمات في الزمن الذي أصبحت فيه هذه الكلمة تعني العزلة!

أعاني من أوراق خاص بي، هم ليست له حدود على مصير الكلمة المكتوبة، أدرك في كل وقت أنه لا جدوى من من كل هذا لدى يقين أن القانون الذي يحكم هذا الجزء من العالم – وهو قانون غير مكتوب – يقول: ليكتب من يريد الكتابة ما شاء وليقل من يحترف القول كل ما لديه، ولكن من

يملك قدرة الفعل سيفعل أيضاً ما يريد لسبب بسيط أنــه لـن يقرأ ولن يسمع، ولهذا أقول من جديد إنها أصوات الصمت.

أدرك أنه لا جدوى، ولا أمل ومع هذا أتحرك كل يوم بحكم العادة اليومية، واكتشف أن تجدد الحياة اليومية يعطـي الناس قدرة على الاستمرار هي بجد ذاتها بطولة من نوع ما.

أجريت هذه الأحاديث لننـي دخلـت ميـدان العمـل الصحفي من باب الأدب، وكنت أتصور أنه أنسب الأعمال، ولكني عندما قرأت كلمة هيمنجواي الخالدة التي يقول فيها : «إن الصحافة تناسب الروائي تماما بشروط أن يعرف الوقت المناسب لكي يتركها فيه»...

وقد عرف هيمنجواي ذلك الوقت وهجرها فيه..

فمتى نعرف نحن؟

ومتى أعرف أنا؟

إن زمان الرحيل والتغيير يدق الأبواب.

يوسف القعيد

القاهرة ــ الضهرية ــ بحيرة ٣٨٩١

صاحب قنديل أم هاشم

في جلسة اعترافات

* كتب مقالاتى الأولى بتوقيع
عبد الرحمن بن حسن إعجاباً
بالجبرتي.
* سأعيد نشر مقالاتي النقدية
في عشرة كتب جديدة. *
كتبت عن قنديل أم هاشم
وعن الحارات والبيوت والناس
المنكسرة القلوب لأنني أردت
التعبير عن تراب مصر. *
سيف الدولة قطز كان
البروفة الأولى لمحمد على
ومع ذلك لم يحظ باهتمام
المؤرخين.

وعندما يقول يحيى حقي إنه عشق تراب مصر، وشعر بالحنين إليها على البعد وهو ينتقل بين دهاليز سفارات مصر في الخارج كدبلوماسي، وإن هذا العشق كان دفعه إلى الكتابة فهو صادق – وتشهد بعض قصصه التى تفوح منها رائحة تراب مصر وأهلها من القرى والبيوت والحواري بهذا العشق – تشهد به أعمالها القصصية مثل (قنديل أم هاشم) و (دماء وطين) و (صح النوم) و (البوسطجي) وتشهد عليه أكثر تلك الذكريات والمشاعر التي ضمتها في دفء (خليها على الله) لقد كان يحيى حقي عندما أدار أول مصلحة للفنون بعد قيام ثورة ٣٢ يوليو ٢٥٩١، أول باعث للتراث المصري الشعبي في أوبريت (ليل يا عين) ، وكان هذا امتدادًا لمزاجة ورؤيته الخاصة وعشقه الذي لا ينتهي للناس في البيوت والحواري والقرى والأحياء الشعبية أكثر من هذا أن شباب الرجل الأديب لم يتوقف، فهو لم يقف عند حد إفساحه المجال أمام عشرات ممن لمعت أسماؤهم في الحياة الأدبية والثقافية عندما كان يرأس تحرير مجلة (المجلة) بل يجدد اليوم شبابه وينشر عشرة كتب جديدة تتضمن مقالاته النقدية في الحياة والأدب وطوال الخمس عشرة سنة الأخيرة.

كان موعدي الثامنة صباحاً ولهذا وقف على باب شقته فيلون الصباح الرمادي في انتظاري، يحيى حقي في السادسة والسبعين من عمره الآن، ومع هذا كان يقف في نشاط وحيوية وتألق تصل لحد الندرة، رحب بي بصوت عال ودخلت معه، أول ما يطالعك عدد كبير من العصى التي يستخدمها في سيره اليومي. عصى من ألوان وأشكال مختلفة تحمل رائحة عصر مضى.

رائد المغامرة الفنية في جيله:

يحيى حقي هو المغامرة الفنية قادها باقتدار نادر من الكلمة الأولى التي كتبها وحتى الآن، هو مغامر في رحلة طويلة في أعماق الكلمة.

ويحيى حقي قد توقف منذ خمسة عشر عاما مضت. لم يكتب حرفاً واحداً، ومن يومها وهو قارئ فقط، يعيش في عالم من الكلمات والحرف المكتوب والكتب، في يده مسبحة بيضاء وعلى مكتبة مسرحية (مأساة الحلاج) لصلاح عبد الصبور يقرؤها هذه الأيام.

يحيى حقي (فأر كتب قديمة) وحتى الآن فإن جولته التي يحرص على القيام بها هي التجوال في أماكن بيع الكتب

القديمة، ما من مرة يذهب فيها إلى عاصمة من عواصم العالم حتى يبحث عن الكتب القديمة يقول لي: هناك بعض الكتب التي خلقت لكي تباع في محلات الكتب القديمة حتى لو عرضت هذه الكتب بصورة جديدة.

- **السؤال الأول: أمام يحي حقي: ماذا تفعل الآن؟**

ويقول الرجل ببساطة: أنا معك بين الكتب وهذه هي معيشتي، تعود إلى ذهني الآن صورة الجاحظ الرجل الذي قدر له أن يموت بين الكتب، أحب الحديث طويلاً عن علاقتي بالكتب وفي هذه الرواية لا بد وأن أستطرد مرارًا وهذا الاستطراد من علامات الشيخوخة وأحب سؤال حينئذ يكون: ماذا كنا نقول؟ أنا لا أعيش بين الكتب فقط ولكن بين الناس أيضا. وبنفس القدر أعيش الحياة نفسها منذ أيام شاهدت فتاة صعيدية يطفر الدمع من عينيها، كانت تقول: والمتلقى يا حبيبي بين أيادي الله، ولم أتأثر في حياتي قدر تأثري بمنظر هذه الفتاة، أيقنت أنها متعلقة بحب شاب لا تستطيع أن تقابله في هذه الدنيا ومع ذلك فهي تثق أنها ستقابله بين يدي الله حيث لا يكون هناك فراق أبداً، العامة تقول: اللقا نصيب.

في حياتي الكتب أنواع وأنواع.

يعيش يحي حقي بين الكتب ويقول عن الكتب في حياته: هناك كتب كانت تجرى ورائي، وكتب أجري وراءها، الكتب التي جريت وراءها هي الكتب التي كانت مقررة علينا في المدارس ومن أمتع هذه الكتب (كليلة ودمنة) لابن المقفع و(أدب الدنيا والدين) للمازني كنت أقرأ هذا في المدارس الابتدائية ولا يعلم سوى الله ماذا يقرأ الآن طلاب المدارس الابتدائية؟ لماذا نجرى وراء الكتب الأجنبية؟ مع أنه بين يدينا هذا التراث من الكتب الجيدة، لا يمكن أن يقال إن أسلوب هذه الكتب معقد ومقعر، إن ابن المقفع أكثر معاصرة، في الثانوي كنا نقرأ شكسبير وديكنز وسكوت، كنا نقرأ النص بأكمله ودون أن يلحق به أي اختصار ولا أعرف من جديد ماذا يقرأ شباب هذه الأيام، ولكني في شبابي جريت وراء نوعين من الكتب، الأول هو الروايات البوليسية والثاني الروايات الرومانسية العاطفية.

هذا يجرني إلى الحديث عن مكتبتي، أنت تعرف أنني عملت فترة طويلة في السلك الدبلوماسي، الدبلوماسي كثير

التنقل من عاصمة إلى أخرى، وهذا جعلني أفقد الكثير من الكتب في هذه الرحلة.

التجول في مكتبة يحي حقي يجعلك تجد العديد من الكتب النادرة مثل العملات الصعبة. في هذه الأيام لدية كتابان هما: الموسيقي الشرقية، والأغاني العصرية لكامل الخلعي، يحيى حقي يقول: لدي كل ما أصدرته مطبعة بولاق إن الاحتفاظ بهذا العدد من الكتب مسألة صعبة.

ويقول يحي حقي بحزن: -

- في الفترة الأخيرة أصبحت بضعف في نظري ولهذا أنا قليل القراءة في هذه الأيام والسبب ضعف البصر، الذي أصابني في الفترة الأخيرة.

كل هذا العصر في ذهن الرجل

قد يتصور البعض أن يحيى حقي يعيش في عزلة ما، مع أن هذا غير صحيح، فالرجل يعيش عصرنا بقدر نادر من اليقظة، على مكتبة وجدت العدد الأخير من مجلة المصور قال لي: المصور تصلني هدية من دار الهلال منذ أن كان يوسف السباعي رئيسًا لتحريرها، وكانت جريدة

المساء تصلني أيضاً منذ أن كنت أكتب فيها، ولكن محسن محمد منع وصولها، وأنا عاتب عليه لهذا السبب فأنا جزء من أسرة المساء.

عندما وصلت إلى بيته حدثني عن أخر نبض عالم اليوم، تحدث معي عن تصريحات فرانسوا ميتران قبل زيارة السعودية والإجراءات الأخيرة في مصر، إن متابعة هذا الرجل لهذا العصر فيها قدر نادر ،من المشاركة اليومية وحتى بعد توقف يحيى حقي- في الفترة الأخيرة – عن الكتابة فالرجل له ستة وعشرون كتابًا في المكتبة الآن، من المفروض أن تصدر كأعمال كاملة له، صدرت له ثمانية كتب، وهو لا يعلم متى يصدر الباقي منها، قال لي: أنا لا أتابع ما يجرى في هيئة الكتاب، أتمنى منهم الاهتمام بهذه الأعمال فعلاً.

الزمن الراهن في مواجهة الماضي

- **ما هي دلالات صمت يحيى حقي الأخيرة؟**

يقول الرجل: -

في وقت من الأوقات تحولت من كتابة القصة إلى الصورة القصصية وهي لون من الإبداع الفني، أنها شعر

منثور وفي تصورى إن المقالة قالب أدبي يلبي مطلباً من مطالب القراء. وأنا ضد أن يحبس الكاتب نفسه في شكل أدبي، لقد قلت في هذه المقالات الكثير، مثلا طالبت منذ سنوات طوال بنقل رفات عبد الله النديم من استانبول إلى مصر ولم يتحرك أحد لدراسة هذا الاقتراح إلا مؤخراً، وطالبت بنقل رفات سليمان الحلبي الموجود داخل زجاجة في متحف الإنسان في باريس ولكن العديد من هذه الاقتراحات طارت في الهواء.

إن المقال فن عظيم لأبعد حد وأنا أفضل أن يقال عني كاتبا، قبل أن يقال أنني قصاص، والمقال في تصوري أبعد من مجرد الكتابة الصحفية، إنه موقف إنساني متكامل، فمثلا إن كتبت عن مشكلة آنية في الحياة اليومية ففي المقال أقدم عناصر هذه القضية الإنسانية وأتتبعها حتى آخرها.

اللغة العربية يجب علينا أن نفكر فيها بالصورة وليس بالكلمة ، والكاتب عليه أن يحمل كاميرا في يده وليس قلماً. أرفض عرض الكلمات بجوار بعضها فكرنا بهذه الصورة فالمطلوب هو العثور على بداية الكلام فقط، أما الباقي فسيعطيك نفسه دون مشقة، ستسلمك الكلمات نفسها، أطلب

من الكاتب أن يفكر في صمت وأن يكتب في صمت وأن ينسى الجرس والصوت للكلمة العربية ولكن الكاتب يحب إيقاع الكلمة الصوتي وفي هذه الحالة عليه أن يعيد قراءة ما كتبه بعد الانتهاء من كتابته وفي هذه الحالة سيجد أن هناك إيقاعاً جميلاً: الكلمة لديها قدرة فريدة على الإيحاء، إن وجدت الكلمة الصحيحة تعطيك الكلمة التي بعدها، عندما أكتب، فإن البروجي الداخلي يعزف، لهذا يستيقظ في الداخل كأنه ألفاظ ومفردات اللغة العربية تحضر إليك تسلمك نفسها، منها ما يهرب منك، ومنها ما يقدم لك إمكانياته.

حوار ليس من طرف واحد

- ماذا تقرأ هذه الأيام؟

- لا أحب الحديث عن نفسي سأتكلم عن الشباب من كتاب القصة وبالأخص عن عبد الله الطوخي في روايته «النهر» قام الطوخي برحلة من أمام فندق شبرد في القاهرة وحتى الأقصر في صعيد مصر، وقدرة الفن العظيمة، أن يجعلنا نجد في العادي والمألوف ما هو غير مألوف عادي، عبد الله الطوخي قدم حياة النهر الكاملة، هناك صبري موسى الذي خرج من دائرة حياة المدينة وحياة الريف بشكلهما

العادي ورحل إلى الجنوب من مصر إلى حياة قبيلتي العبابدة والبشارية. وقدم تجربته الشافية من النوع الفريد بصورة فنية تصل إلى حد الندرة، إنهما لا يقدمان العادي والمألوف، ولكن غير العادي والمألوف.

* لم كتبت الـ ٦٢ كتابًا التي هي كل عمرك؟

- كان همي ومسعاي وغرامي طوال سنوات عمرى أن أعبر عن تراب مصر وطينها، ولم أعبر إلا عن مصر بعد أن كتبت كل هذه الصفحات عن قنديل أم هاشم، وعن صعيد مصر وعن قرى الوجه البحري، وعن الحارات والبيوت، عن الناس منكسري القلوب. وازدادت مصريتي عما كانت عليه من قبل، همي وغرامي ومسعاي وحلم عمري كان إعادة خلق هذه اللحظات اللانهائية من عمر مصر كلها.

*** ما هو الكتاب الذي وضع يدك على الروح المصرية؟**

- يقولون في الأمثال الشعبية (اللقا نصيب) أهم كتاب في عمري كله قابلته بصدفة غريبة في سنة ٩٢٩١ سافرت إلى جدة في السعودية. وهناك في دولاب قديم التقيت بأهم

كتاب هو (عجائب الأثار في التراجم والأخبار) لعبد الرحمن الجبرتي، وجدت الأجزاء الأربعة الرئيسية لهذا الكتاب ولـم أكن قد قرأته من قبل لكن ليس الفراغ ولا ظروف الحياة في جدة، هما السبب في قراءته إنه شيء ما فـي هـذا الكتـاب شدني إليه، قرأته أكثر من مرة وتأثرت به وكان هذا الكتاب أكبر حصيلة حصلت عليها في حياتي، ولهذا جريت أنقب في الكتاب عرفت مثلاً من أي بلدة هو ورسمت له صورة فـي ذهني رسمته على هيئة المهدي الثائر السـوداني وأعجبـت بدوري بوالده الشيخ حسن الجبرتي.

هل تتصور أنني سأذيع سر لم أقله من قبل؟ مقـالاتي الأولى نشرتها موقعة باسم: عبد الرحمن بن حسن وهذا لكي أعطيك فكرة عن مدى تأثري به وإعجابي بفنه وفي كل وقت أتساءل بحزن ومرارة: لماذا لا يدرس هـذا الكتـاب فـي مدارسنا؟ لماذا لا يقرون هذا الكتاب على طـلاب المرحلـة الثانوية؟ لماذا؟

- **ما هي الأعمال الأدبية التي استوقفتك في الفتـرة الأخيرة؟**

- هناك أعمال رائعة قرأتها في الفترة الأخيرة ومع هذا لا أجد لها صدى ما. في الواقع رواية «الحدبة الصغيرة» من تأليف حسن محمود كتاب عن الشباب لإسماعيل مظهر وإن كان في طبعه خاصة وصغيرة جداً. ومع هذا لا أحد يقرأ هذه الروائع في أيامنا هذه.

أخطر كتب هذا العصر

فجأة يتوقف يحيى حقي عن الحديث يقول إنه نسى وكيف ينسى الحديث من كتاب هام صدر مؤخرًا أو في الحقيقة صدرت منه طبعة جديدة مؤخراً.

يتكلم يحيى حقي، ويصلني صوته مثل الغناء، صوت رائق رغم اضطراب هذا العصر، وحديثه ينقلنا إلى عصر آخر:

يقول:

- في العصر البعيد، كان هناك شاعر يريد أن يصبح زعيماً وطنيًا هو مصطفى كامل شاعر قبل أي اعتبار آخر وكان هناك رجل دين يريد أن يكون مستشارًا للدولة، هو الإمام الشيخ محمد عبده، وكان هناك مندوب يريد أن يصبح رئيسا للوزراء هو اللورد كرومر، وكان هناك شاعر

حصل على إمارة الشعر هو أحمد شوقي، وشوقي بسبب الإمارة، وبسبب ظروف اجتماعية أخرى كثيرة نشر العديد من القصائد بأسماء مستعارة، محمد صبري السوربوني، جرى وراء هذه القصائد، التي تعرف إنها قصائد شوقي من خلال حاسته الفنية فقط، وهي مسألة صعبة أن تحاول معرفة صاحب قصيدة من الشعر من مجرد العلاقة بطريقة هذا الشاعر السوربوني جرى وراء القصائد واكتشفها وقدمها للناس، المهم في هذا الكتاب أنه دراسة جيدة في النقد الأدبي وإنه يجمع بين الثقافة والتذوق وهو يقدم منهجاً متكاملاً في النقد الأدبي من خلال الاعتماد على اللغة، في أوربا نجد الآن حالة من إعلاء شأن اللغة، واللغة يجب أن تكون مفتاح دراسة الأدب العربي الآن: إذا لم يكن لدينا إحساس بجمال اللفظ وجمال التركيب اللغوي فلن نصل إلى فهم خاص بالأدب العربي أبداً.

- **لماذا لا تحب الحديث في السياسة؟**

- ولما لا؟ أفكر طويلا في أمور هذا العالم السياسية وخاصة علاقة الدين بالدولة وفي هذا المجال تحضرني تجربتان؛

الأولى في تركيا وهي تجربة مصطفى كمال، والثانية التجربة الإيرانية مصطفى كمال نادي بفصل الدين عن الدولة. الدين واقع والدولة وهم متخيل، الدولة مجرد فكرة عامة في الذهن.

- أما تجربة الخومينى في إيران. رمت الدولة بجميع مؤسساتها وهيئاتها في أحضان الدين وكلتا التجربتين تمثلان حالة من المغالاة.

وإن كنت أرى أن المسألة أبعد من هذا. إن القضية التي ضغطت على أعصاب المجتمع الإسلامي كيف تماشي العصر وما فيه من تطور؟ وأنا أقول إنه وإن كان هذا التطور مطلوبا وحتميا، فلا بد وأن يأتي من داخل الشريعة نفسها وليس من خارجها.

عند هذا الحد توقف الرجل عن الحديث قال لي بوضوح محبب:

- يوسف توقف عند هذا الحد، أنا أكره الحديث عن نفسي تماما، ولقد تحدثت في هذا اليوم كثيرا عن نفسي وبدون حد ولا بد من التوقف عند هذا الحد.

ومع أن الرجل لم يتحدث عن نفسه بالصورة التي يتخيلها، ولكنها حساسية الفنان المفرطة.

وأخرج من بيت صاحب قنديل أم هاشم: يحيى حقي المبدع الوحيد في الأجيال التي سبقتنا الذي أدرك معنى الإبداع الأدبي، الكاتب الوحيد تقريباً، الذي يكتب صفحة واحدة في عشرة ساعات تقريبًا والذي يحفظ ما يكتبه تقريبًا من كثرة العناء والتعب في العملية الإبداعية، والرجل الوحيد الذي يدرك أن صمت الفنان يساوي قوله تماماً، والذي قدر على الصمت في الوقت الذي أراد فيه أن يصمت، والفنان الوحيد الذي يتعامل مع مفردات اللغة بكيانه الكامل.

إن يحيى حقي مدرسة، أخشى أن نضع أيدينا في كل كنوزنا العلمية، متأخرين في ذلك جداً.

نجيب محفوظ: المطلوب الآن تضميد جراح حياتنا الثقافية

ها هو الرجل

يهل علينا فكأنه أبطال رواياته جميعًا. فكأنه مخلوقات مدينته التي أحبها لحد العشق كلها.

الرجل وأبطاله ومدينته

الرجل هو نجيب محفوظ

والأبطال عدد لا حصر له من مخلوقاته الجميلة الذين يتحركون عبر عالمه الروائي.

القاهرة: هي تلك المدينة العجوز المغلفة بالضباب، ومقدمات المطر قاهرة الخريف من كل عام.

المهمة الأولى: في

يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ديسمبر القادم يكمل نجيب محفوظ عامه السبعين، يحمل الرجل على كتفيه هذا العدد من السنوات وعددًا آخر ضخماً من الروايات والقصص القصيرة والأفلام المأخوذة عن هذه الروايات، والكتب الصادرة عنه والرسائل الجامعية التي تحاول دراسة أعماله ورغم هذا العدد من السنوات ففي السابعة صباحاً، بالدقيقة والثانية، ينزل نجيب محفوظ من منزله يتوقف في

شارع النيل بالعجوزة أمام البيت رقم ٢٧١، ويتحرك على قدميه، يمشي باتجاه كوبري الجلاء يسير الهوينى، القاهرة تستيقظ من وسن الليلة الماضية ونهر النيل، ذلك المسافر في الزمان أبداً ، على يساره بيوت القاهرة وعلى يمينه والرجل يسير وعلى العينين نظارة سميكة وفي الأذنين سماعتان حتى يتمكن من السماع فخلف جدران البيوت توجد تجربة الحياة التي كتب عنها بحب وشغف وفي الحجرات المغلقة يوجد الحزن والسرور والفرح والأسى الذي يدون وفوق الكراسي والأسرة وتحت الأسقف الإسمنتيه.

ذلك الشتاء

والشتاء ليس وقت البيات والراحة بالنسبة لنجيب محفوظ إنه وقت العمل المستمر، فيه يعمل وفي الصيف يتوقف تمامًا عن العمل، بسبب مرض حساسية في العين، ولأن الصيف هو فترة الهجرة إلى حبه الثاني الإسكندرية ورغم العام السبعين ورغم أننا نودع الآن الصيف إلا أن نجيب محفوظ لديه رواية جديدة هي: الباقي من الزمن ساعة، ويستعد للدخول إلى محراب الشتاء القادم لكي يبدأ رواية جديدة عن تاريخ أخناتون ولا شك أن عودته إلى

التاريخ القديم – وكانت له رواية عن رادوبيس، وله كتاب هو الأول من نوعه – فقد جلس على مدى ساعات طوال مع جمال الغيطاني، حيث سجل مذكراته التي تصدر قريبًا بعنوان: «نجيب محفوظ يتذكر».

كان العام السبعون هو موضوع السؤال الأول الذي فرض نفسه فرضاً علينا معاً، في ديسمبر سنة ١٦٩١ بلغ نجيب محفوظ سن الخمسين من العمر، وفي ديسمبر سنة ١٧٩١ بلغ ستين عاما احتفلت به مصر كلها وصدر عدد خاص من مجلة الكاتب في الاحتفال الأول، وصدر عدد خاص من مجلة الهلال في الاحتفال الثاني، وأقام له الأدباء الشبان حفلاً صغيراً في مقهي ريش، وقف يومها ليغني معهم : «بلادي بلادي، لك حبي وفؤادي».

كان السؤال الأول:

- **هل تتوقع أن يحتفلوا ببلوغك سن السبعين؟**

- قال الرجل متهربًا من الإجابة واضحة صريحة:

- أنت تعرفني، وتعرف أنني أكره الاحتفالات بطبيعتي وقد أجبرني الضغط على تحملها في الخمسين والستين وأعتقد أن الضغط سيجبرني في السبعين، إني أعتبر حديثك

المصحفي لي نوعا من الاحتفال وأقنع بجلسه أصدقاء في مقهى الفيضاوي مثل القديمة.

الحنين لحي الأزهر

- منذ سنوات لم تذهب إلى الأزهر.

قال الرجل بحنين عاشق: -

أحب الفيشاوي وحي الأزهر وبين القصرين وقصر الشوق وخان الخليلي من كل قلبي وأنتظر مع حل مشكلة المواصلات – ولعل حل مشكلة المواصلات أن يردني إلى نبعي القديم هناك، فنعود كما كنا، أنا وأنت وجمال الغيطاني ، عندما كنا نذهب يوم الإثنين مساء من كل أسبوع.

- **ماذا تفعل الآن؟**

- هذا العام بدأت موسم العمل، تصور لقد بدأته مع شهر أكتوبر - مع أنه كان صيفا هذا العام - بميل إلى قراءات في التراث الفرعوني، والعربي ولا يعني هذا أي أثر معاصر إذا حظيت به عربيا أو غربياً، ولكن الغريب بالنسبة لى هو العودة المفاجئة إلى الفرعونيات بعد انقطاع عنها.

- **هل لذلك علاقة بروايتك التي كتبت فيها عن اخناتون؟**

- بدون شك فأغلب الظن أنها كتبت لتكون رواية فرعونية.

الساعة الباقية

- عرفت انك انتهيت من رواية جديدة عنوانها: الباقي من الزمن ساعة، هلا حدثتني عن موضوعها؟

- كل ما استطيع أن أقوله عن قصتي (الباقي من الزمن ساعة)، إنها عن الحياة في مصر ما بين عامي ٦٧، ٧٧، أو ٨٧٩١، وإنها لن تكون ثلاثية أخرى ولكن مجرد قصة من حوالي ٠٥١ إلى ٠٠٢ صفحة ولك الحق أن تدهش بطبيعة الحال وكلها ستكون تجربة أسلوبية، وقد كتبت بعدها قصة سميتها (رحلة ابن فطومة).

- **آخر أعمالك المنشورة، فيها عودة إلى ألف ليلة وليلة، هل أجدب الواقع المعاصر لك الآن؟**

- حقاً أننى أعتمد على ألف ليلة وليلة وأستلهم منها التراث وقد سبق أن استلهمت التراث الفرعوني في مطلع حياتي،

فاستلهام التراث لبس جديدًا على وربما كررت ذلك مستقبلاً إن كانت في العمر بقية.

ما فوق النيل

- **يشكو ناشرك من صدور طبعة شعبية من روايتك (ثرثرة فوق النيل) وهل وافقت على تقديم معالجة مسرحية لها في إسرائيل؟**

- أنا أعرف أن الطبعة الشعبية توقف الكتاب فلا تصدر له طبعات جديدة، فشكوى الناشر في محلها، خصوصًا وأن كتبي مقاطعة في دول الوطن العربي كلها وقد زورت عن آخرها في بيروت فأصبحت لا تباع سوى في مصر، وقد حدث فعلاً أن عرض على الأستاذ ساسون سوميخ أن أوافق على مسرحة «ثرثرة فوق النيل» للمسرح العبري فوافقت على ذلك.

من المعروف أن «ثرثرة فوق النيل» رواية تهاجم بعنف السنوات السابقة على هزيمة الخامس من يونيو ٧٦٩١ وتظهر سلبيات هذه المرحلة.

أنت ونوبل

- هل قابلتك مندوبة لجنة جائزة نوبل والتي زارت مصر مؤخراً؟

- لم أعلم بحضور مندوبة نوبل، وبالتالي فهي لم تتصل بي ولا علم لي بشيء من هذا الموضوع.

والحق الذي لا مرية فيه، إن جائزة نوبل لم تخطر لي ببال أبداً من قبل وكان رأيي دائما أنه لا يجوز أن نشغل أنفسنا بها، إن الأولى بنا أن نضمد جراح حياتنا الثقافية، وأن نمحو الأمية قبل التفكير في الجوائز العالمية.

- **يصدر لك في الشهر القادم كتاب نجيب يتذكر، هل هو مذكرات؟ وهل بقي في حياتك ما لم تقله بعد الثلاثية؟**

- كتاب جمال الغيطاني هو تقريبًا سيرة ذاتية بقلم صديق، أما ثلاثية بين القصرين، قصر الشوق، السكرية، فلا علاقةلها بذلك إلا العلاقة البسيطة التي تعرض أحيانًا في عمل عكس موقف من حياة المؤلف.

الرواية الجديدة

- **من يتابعك يحتار في المسافة الواسعة بين إنتاجك الأدبي وتصريحات كل يوم، التي تؤكد أن من يصرح، غير من يكتب، لماذا هذه الثنائية؟**

- التصريحات نتيجة التفكير أما الفن والإبداع فيكون نتيجة الشخصية كلها بما فيها من وجدان وشعور ولا شعور، ولذلك فإن للمستفيدين أصدق من التعبير عن حقيقة الشخص من فكرة المراد وبخاصة في الموضوعات التي تندرج في الحياة بمعناها العام ولا تختص بالفكر وحده، كالعلم والفلسفة، أضف إلى ذلك أن التصريحات عرضة التحريف أو التشويش فلا يراجعها صاحبها كما يراجع عمله الفني.

العلم والرواية

- **قلت لي من قبل إنك لا تقرأ أعمالاً أدبية في الفترة الأخيرة وأغلب قراءاتك تتجه نحو العلم لم؟**

- القراءة في كتاب في العلم أو الفلسفة أو السياسة أو الدين أمتع لي في هذه الأيام وباستثناء هذا السن من قراءة

رواية باستثناء الروايات التي في مستوى العلم الفلسفة والسياسة والدين.

- **هل لا يزال حلمك القديم بوجود نظم علمي، يقدم الحل لمشكلتي الخبز والحرية، أي يقدم أفضل ما في النظامين الغربي والشرقي؟**

- نعم لا يزال هذا الحلم يداعبني، أشعر أحيانا أننا نتجه إليه في مصر لولا حاجز الأفكار التقليدية وقد عدت إلى معالجة هذا الحلم القديم في قصتي الجديدة (رحلة ابن فطومة).

- **الحرافيش الرواية والأصدقاء**
- هل ما زلت تذهب إلى (الحرافيش) الأصدقاء؟

- نعم ولكن أدع معي للحرافيش بالصحة والعافية فقد أصبحنا حرافيش بأدق المعاني، والحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

- **في نتاجك الأخير تتراجع القاهرة والإسكندرية لم؟**

- نعم الإسكندرية تتراجع والقاهرة تتراجع، وهذا طبيعي وهو يحدث كلما تقدمت السن ورجعنا إلى الذات والتاريخ كي تتم الدورة كما بدأت.

أنت ومن حولك

*تبقى قضية أخيرة من الصعب إثارتها، ولكنى أثرتها، وهي : أن الروائي الكبير الذي يمتد ظله لأبعد منه يظلم في العادة أبناء جيله، وفي تصوري ويقيني الثابت إن ظل نجيب محفوظ الذي أمتد ليشمل عصره كله قد ظلم ليس أبناء جيله فقط ولكن الجيل الذي كتب الرواية من بعده قلت له بتأثر.

وقال الرجل بتأثر:

إن أغضب رذيلة إلى نفسي هي الظلم ولا أذكر أنني ظلمت أحداً في حياتي لعلك نشير غلى النقد وتركيزه على في أيام ازدهاره أبناء جيلي.

ولكن السؤال الطبيعي هو: هل يقع اللوم على أنا في ذلك؟

أعترف معك أن كتاب جيلي لم ينالوا حقهم المشروع من النقد وقد قمنا جميعًا بعمل واحد هو تأصيل الرواية في أدبنا العربي، وتطويع اللغة العربية لها وكل فرد منهم يستحق أن تكتب عنه مؤلفات وبحوث، الحق أنهم ظلموا.. ولكنني لست الظالم، ولا أدري سببًا للظلم، وكان أجدر بك أن تناقش ذلك من النقاد الآخرين في مصر..

يقولون عنه في الوطن العربي أبو الرواية العربية.. وبالفعل يشعر الكل بأبوته الحقيقية وأترك الرجل الذي يحمل على كتفيه هذا العدد من السنوات، ومع هذا يستمر تألقه الإبداعي وثرثرته، أنه يقدم لنا، ولكافة الأجيال الجديدة، الدرس الهام: وهو أن التنظيم يفعل المعجزات، فنجيب محفوظ رجل التنظيم لدرجة الخوف، إن هذه القدرة على التنظيم ربما تؤثر على ينابيع الخلق والإبداع بداخله ولكن الذي حدث أن نجيب محفوظ حل هذه المشكلة التي لم يحلها أحد من قبل أبداً.

إحسان عبد القدوس

يقول بعد ٥٠ قصة:

- على المثقفين ألا ينتظروا من الرئيس مبارك تحديد دورهم
- أتفق مع ابني محمد في الهدف ولكني أختلف معه في طريقة تحقيق الهدف.
- لم يعرف على أحد حتى الآن العودة إلى الكتابة.
- الرواية أكثر متعة لي من المقال السياسي.
- محمد نجيب: جعل ثورة يوليو أكثر جدية.
- جمال عبد الناصر: هدم المجتمع القديم وبني مجتمع الثورة.
- أنور السادات: نقل مصر من حالة إلى حالة
- حسني مبارك: عندما كانت مصر

في حاجة إلى شخصية تستطيع
تحقيق الأمن والأمان وبناء
المستقبل اختاره الله لها. ما
زالت في انتظار الناقد الذي ينصفني، من يصدق أن إحسان
عبد القدوس – أكثر الروائيين شهرة في الثلاثين
سنة الأخيرة – يقول هذا الكلام؟ ربما كان الصدق مع النفس
والصدق مع الآخرين هو دافعه لتلك الكلمات.

لقد آن لنا أن نتحدث بصفاء ووضوح عن أكثر الروائيين العرب إثارة للجدل والنقاش، فقد وصل توزيع كتبه إلى أرقام فلكية ومع هذا لم ينصفه النقاد حتى الآن، مع أنه قدم إنتاجه الأدبي في سنوات تميزت بالتفوق والبحث عن حساسية أدبية جديدة، وإحسان عبد القدوس فضلاً عن الدور الأدبي، هو جزء متوهج من تاريخ مصر السياسي والاجتماعي في نصف القرن الأخير.

ولأنه كان يحتمي بالصمت في الفترة الأخيرة وكان يريد
أنه يهرب من المقال السياسي، إلى جنة القصة
والرواية، فالحديث مع إحسان عبد القدوس يحاول أن يعرض
بأسلوب مباشر وبسيط، كيف يفكر صاحب الوسادة الخالية،

وفي بيتنا رجل، ولا تطفئ الشمس، وسيجد فيه قراؤه المتعمقون وقراؤه السطحيون – على حد سواء – خلاصة لمواقف الرجل وآرائه وأفكاره، إن من يستمع إليه وهو يتكلم يتأكد أنه أمام إنسان رضع الأدب منذ صغره وتغذى على أصوات الفن.

إحسان عبد القدوس، تخرج أصلاً من كلية الحقوق وعمل محامياً لمدة عام ونصف، وكان أول شيء ينشره قصيدة من الشعر المنثور نشرها بدون توقيع، وكان أول مرتب له قدره عشرة جنيهات، وتولي رئاسة التحرير وعمرة ستة وعشرون عاماً فقط، وهو الصحفي الذي فجر قضية الأسلحة الفاسدة وهي إحدى القضايا التي مهدت لثورة يوليو وحمل قلمه وقاد به المعارك، ومصر الملكية تتصدع أسسها ببطء، وعاصر الثورة وهي مجرد حلم في الأذهان وكان صديقاً لرجالها.

الحديث معه سياحة في الزمان والمكان، تستدعي كلماته رجال هذا العصر كلهم ابتداء من أمه السيدة فاطمة اليوسف، ووالده محمد عبد القدوس الذي يكشف إحسان هنا، وفي هذه الحديث – عن كلام تعرفه الأجيال الجديدة لأول

مرة، وهو أن والده كان شاعراً وكان كاتبًا مسرحيًا وأن إحسان اتجه إلى الأدب كنوع من التقليد له.

قال إحسان عبد القدوس من قبل أكثر من مرة: إن السجن في بلد حر أفضل من الحرية في بلد سجين، وكانت قضية حرية الرأي أهم قضايا عمره وقال أكثر من مرة: إن اليوم الذي يمر عليه دون أن يكتب قصة يوم لا قيمة له، ومن قبل قال الروائي الأمريكي أرنست هيمنجواري، تناسب الصحافة الروائي دائما، غير أن عليه أن يعرف متى يتركها في الوقت المناسب.

وقصة إحسان عبد القدوس، هي قصة ذلك الذهاب والإياب بين القصة، عشقه الأول والصحافة حرفة عمره الأولى..

..لن نقول إنه أشمل وأكمل حديث أدلى به أحسان عبد القدوس ولكن تعالوا نقرأ العناوين فقط، محمد نجيب، جمال عبد الناصر، أنور السادات، حسني مبارك، محمد عبد القدوس الأب، فاطمة اليوسف، محمد عبد القدوس الابن، موقف النقاد، العزلة التي يعيش فيها الآن، سينما هذا الزمان الصعب، الذهاب إلى المسرح المستحيل، الرواية الأخيرة

وظروف كتابتها، المعارك الطويلة على مدى العمر، الطفولة البعيدة، أين المرأة في القصص الأخيرة؟ الحنين للارتباط المنظم بالحياة الأدبية والصحفية، هل سيعود للكتابة السياسية في مصر؟

وهذه العناوين مجرد فقرات من أطول حديث له.

- لا بد من البدء باعتراف صغير وخاص، إنها المرة الأولى التي أجلس فيها مع إحسان عبد القدوس أراه وأسمعه وهو يتكلم، ألقى أمامه، بكل ما لدي من تساؤلات ويرد عليها برحابة صدر نادرة، بدأ أبناء جيلي في التعامل مع الحرف المكتوب وهو كاتب مشهور ومعروف، وقابلنا كل الأساتذة الذين سبقونا وهو وحده الذي لم يلتق به العديد من أبناء جيلي.

ومن يصدق أن الكاتب الذي تمتلئ قصصه بكل هذه الحرارة الراعشة والذي يقدم في أدبه هذا المجتمع المترامي الأطراف فرض على نفسه من البداية حالة فريدة من العزلة. قديماً قالوا: إن العزلة الكاملة هي الطعام الحقيقي لأي فنان صادق، ومن النادر أن تشاهد إحسان عبد القدوس في مكان أدبي، ومن النادر أن تشاهده يخاطب الجماهير، مع أنه في

حجرة مكتبه المغلقة جيداً يعيش مع أبطاله، وقصصه بكل الحرية والجرأة التي لا يتصورها أحد، لا بد من زهو خاص تلك هي المرة الأولى – فيما أعلم – التي يجلس فيها إحسان عبد القودس، ثلاث ساعات يتكلم عن نفسه وعن حياته برحابة صدر من النوع النادر، حتى الأسئلة التي سببت له الألم بالمرارة، تكلم رداً عليها ، مع أنه نادر الأحاديث التي أدلى بها من قبل، ومع هذا كان كريمًا لحد السخاء في الرد على كل سؤال وجهته إليه.

اللقاء.. زمانه ومكانه

جرى اللقاء في منزل إحسان عبد القدوس شقة من الزمان القديم، الحجرات الواسعة، الطرقات نصف المظلمة الطويلة الطويلة، البيت الذي يعبق برائحة من نوع خاص، أول ما تشاهده وراء الباب جرائد اليوم الصادرة في صباح اليوم، موضوعة في مكان خاص بها، جلسنا في حجرة مكتبه، حجرة زجاجية، يحيط بها الزجاج من كل ناحية، وراءه صورة قريبة الشبه منه رسمها له جمال كامل وهو مصلوب، يقول لي: هكذا أفهم وضع المفكر، مصلوب طوال عمره، محاط بعالم من الكتب، وراءه شهادة أمه الخاصة بفن

التمثيل صادرة من المملكة المصرية، وزارة الأشغال العمومية، تشجيع التمثيل، والشهادة الخاصة للسيدة فاطمة اليوسف صادرة في سنة ٥٢٩١ وخلفه صورة والدة محمد عبد القدوس وصورة أخرى لمحمد عبد القدوس وفاطمة اليوسف ومكتوب تحتها تاريخ الزواج: يونيو سنة ٧١٩١، يقول إحسان:

- ولدت بعد التقاط هذه الصورة بعامين تماماً، في مواجهته تمامًا مجموعة مجلدات روز اليوسف وصباح الخير – وتحتها أعماله الكاملة ٤٣ كتابًا هي كل نتاجه الأدبي فيها ٥٠٠ قصة ما بين قصيرة وطويلة قدمها على مدى سنوات عطائه الأدبي وعلى مكتبه العدد الأخير من مجلة الهلال ومجلة صباح الخير، وكتاب توثيقي عن معاهدة كامب ديفيد فيه النصوص الأساسية لها، وعدد من نشر التقدم، النشرة التي يصدرها حزب التجمع الوحدوي التقدمي الوطني، فوق أعماله الكاملة؛ توجد اللافتة الوحيدة في المكتب وهي آية كريمة من القرآن الكريم (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) في مواجهته صور العائلة؛ وأبناءه كريم وشريف، في الحجرة أكثر من صورة لابنه محمد، المتحفظ عليه الآن يعلق هو

على ذلك قائلاً: منذ التحفظ على محمد في الثالث من سبتمبر الماضي ونحن نجمع كل صوره ونكبرها ونضعها هكذا، أحدث صورة لمحمد وعروسه في زفافه، وهما يقطعان معاً تورتة الفرح.

يقول: أم محمد هي التي تجمع هذه الصور العديدة وترفعها في كل مكان في البيت الآن.

كتب الآخرين، وكتب إحسان عبد القدوس.

قال إحسان عبد القدوس ذات يوم إنه لا يقرأ الكتب الي تهدي إليه، وإنما يقرأ الكتب التي يشتريها فقط، لم هذا؟ يبتسم الرجل الذي يلبس بنطلونًا أسود وفانلة شبابية سوداء ويضع على العينين نظارة سوداء وكل هذا اللون له حضور خاص في حجرة زجاجية: يصبح لشمس الشتاء حضور نادر فيها، ويقول:

- هذا الكلام له قصة كنت أهدي كتبي إلى الآخرين وفي ذات يوم قال لي الدكتور طه حسين أن زوجته تشكو من كثرة الكتب في البيت، وأنه يضع بعض هذه الكتب في البانيو ومن يومها لم أهده أو أهدي غيره كتبي خوفاً من هذا

المصير الغريب وإن كنت أقرأ كل ما يصلني من الكتب، وأعتز بالكتب المهداة إلى فعلاً.

في هذه الأيام تنشر لإحسان عبد القدوس رواية مسلسلة: في القاهرة ولندن معاً قال لي بسعادة غامرة، إنه بعد نشر الحلقة الأولى منها سأل رئيس التحرير هل ارتفع التوزيع بعد نشرها أم لا وكالعادة كانت الإجابة إن نشر القصة رفع التوزيع فعلاً. ولكن السؤال، الذي يثيره نشر هذه القصة الآن هو: هل لها علاقة بما جرى في مصر مؤخرًا ابتداء من السادس من أكتوبر الماضي؟ الرواية عنوانها: يا عزيزي كلنا لصوص، والذي سيتوقف الإنسان هو: على من تعود نون الجميع في هذه الرواية؟ يقول إحسان عبد القدوس.

- في رواياتي، لا أتعمد شخصية معينة تكون البطل، أنا في كل قصصي أعتمد على تنوير نواحي المجتمع، هذه القصة قائمة على ناحية معينة من نواحي المجتمع خاصة الناحية الاقتصادية والتجارية وكيف يخسر الناس وكيف يكسبون، إنه ما يسمونه بالانسياب الاقتصادي.

*** هل كتبت هذه القصة بعد السادس من أكتوبر؟**

- هذا كلام يقال، ولكنه غير صحيح، لم أكتب هذه القصة بعد وفاة المرحون أنور السادات، فأنا قد انتهيت من كتابتها منذ عام مضى تقريباً، ولكن جدت بعض الظروف جعلت نشر القصة – في هذا العام الأخير صعباً، وهذا تقدير شخصي مني أنا لقد قررت أن أنشرها في الأيام الأخيرة من حكم الرئيس أنور السادات، أن الفترة الأخيرة لم تكن تسمع بنشر هذه القصة لأنها تقوم على نقد عنيف، الجو العام الذي تقوم عليه القصة كان يتعارض مع الموقف بالنسبة للنشر، أو للسماح بالنشر، ولم يكن في نيتي نشر هذه القصة في لندن أبداً وأنا أخصص القصص للنشر الداخلي ولكن بعد أن تقرر نشرها في مصر قررت نشرها في لندن في نفس الوقت.

من عادتي أن أكتب القصص وأركنها فترة من الوقت.. وللعلم لدي الآن ثلاث روايات تنتظر النشر فعلاً..

- **هذا يقودنا إلى مفردات الكتابة وطريقتها عندك. كيف تكتب؟**
- **ومن أي النقاط تبدأ الرواية عادة؟**

- أبدأ دائماً بتحديد الموضوع، موضوع القصة، وأعتمد غالباً في هذا على الخواطر وعلى المؤثرات العامة

التي تؤثر على خواطر أي إنسان، وبعد أن أقرر الموضوع أبدأ في تحديد الأحداث والشخصيات، التي تعبر عن رأيي في هذا الموضوع، وهذا قد يستغرق مني عدة شهور وأحيانًا سنة كاملة وأنا تائه بخيالي في موضوع القصة إلى أن أستقر على صورة كاملة، فأبدأ الكتابة بعد أن أكون قد حددت النقاط التي ترسم القصة، كتابة القصة ليست سهلة بالنسبة لي، ولكنها أكثر إمتاعاً لي – وأنا أكتب — من كتابة المقال السياسي، عندما أكتب القصة أشعر أني منفعل كلياً، ولكن في المقال السياسي أعتمد فقط على التفكير العقلي، القصة تشمل إحساس الكاتب أيضاً، والتعبير عن إحساس وهو يكتب دائماً، أحيانًا أقول إن كاتب القصة كالممثل ، فالممثل يمثل الشخصيات على المسرح والكاتب يمثل هذه الشخصيات على الورق بقلمه.

عن العودة للكتابة السياسية في مصر

- **في ظل الانفراج الذي حدث مؤخراً في مصر، يطرح السؤال نفسه: هل يعود إحسان عبد القدوس إلى الكتابة السياسية في مصر مرة أخرى؟**

يقول

- لم يعرض على أحد حتى الآن أي شيء، وأنا سبق أن اتفقت مع الأهرام – على أن أقتصر في عملي – على نشر القصص فقط، ولا يزال هذا الاتفاق مستمراً، ولم يحدث أي أتفاق مع أي مؤسسة صحفية، أو درا للنشر حتى الآن. بالنسبة لدار الهلال، أنا سعيد جداً بنجاح الأستاذ مكرم محمد أحمد في دار الهلال والتطورات التي أدخلها على المصور وعندما تكلم معي الأستاذ مكرم طلب منى قصة، ولم يطلب مقالاً سياسياً.

- **والروايات الثلاث الموجودة في درج مكتبك الآن، ماذا عنها؟**

- أفضل – وأرجو أن توافقني على ذلك – أن أحتفظ بعناوين وموضوعات هذه القصص مفاجآت للقارئ..

ولأنها كلها قصص طويلة ، يستغرق نشر الواحدة منها عاماً كاملاً تقريبًا. -

الجالس على المقهى في الشارع السياسي عندما يتكلم عن زعماء عصره لا يمكن الجلوس مع إحسان عبد القدوس الرجل الذي يمثل جزءاً من تاريخ نصف القرن الأخير من حياة مصر، دون سؤاله عن الزعماء الذين عاصرهم.

- **ماذا عن تقييمك لمرحلة حكم الرئيس أنور السادات؟**

- صداقتي بالمرحوم أنور السادات لم يؤثر فيها تباعدنا العام واختلافاتنا السياسية فكنت محتفظاً بصداقته، وأعتقد أنه هو الآخر ظل محتفظاً بصداقتي، رغم التباعد، ورغم الخلاف، ورغم أن ابني محمد كان من بين المحتفظ عليهم من سبتمبر الماضي فهي صداقة تعود إلى عمر طويل بدأت منذ عام ١٩٤٨، وقد تعرضت هذه الصداقة لكل ما شمل هذا العهد من أحداث ورغم ذلك لم تتأثر، لأنها لم تكن مجرد صداقة عمل ولكنها صداقة تقارب على المستوى الشخصي وتفاهم في الهدف الوطني رغم الاختلاف في

وسائل تحقيق هذا الهدف. بالنسبة لأنور السادات، أضعه في الإطار الذي أضع فيه كل تاريخ مصر منذ بدء الثور، فقد تولى حكم مصر منذ بدء الثورة حتى الآن ٤ رؤساء أؤمن بأن كل منهم قام بدوره ثم انتهى عندما انتهى هذا الدور، محمد نجيب قام بدوره في تقديم الثورة في صورة أكثر جدية، بدلاً من أن تكون مجرد ثورة شباب وبعد ذلك قام جمال عبد الناصر بدوره في تحقيق ما تفرضه الثورة فعلاً، أي في هدم كل ما كان قائماً قبل الثورة وبناء مجتمع جديد تفرضه الثورة ثم انتهى دور جمال عبد الناصر وكان الوضع بعد هزيمة ٧٦ يحتاج إلى شخصية مغامرة جريئة ليست شخصية عادية فاختار الله أنور السادات واستطاع السادات أن ينقل مصر من حالة إلى حالة، ثم انتهى دوره، وأصبحت مصر في حاجة إلى شخصية لها مقومات أخرى تستطيع أن تضمن لمصر الأمن والأمان وبناء المستقبل، واختار الله حسني مبارك ليقوم بهذا الدور.

- **هل أنت قدري؟**

- من طبيعتي الاستسلام للقدر، فأنا مؤمن بالله وبأن الله يحب مصر وبذلك يجعل القدر يتطور بها من

مرحلة إلى أخرى ويختار لكل مرحلة ما يناسبها من الرجال وأن يتحمل مسئوليتها.

- **وماذا عن المستقبل؟** - المستقبل يتطلب عملية بناء واسعة ويتطلب تخطيطًا جيداً وتفاصيل جديدة، فنحن مثلاً نحتاج إلى الحرية الاقتصادية ولكن هذه الحرية إن لم يتم وضع ضوابطها بحيث تكون واقعاً ثابتاً، تضمن التوفيق بين المصالح المتضاربة بين الطبقات ونحن مثلا نقول الديمقراطية ولكننا لم ننته بعد من وضع تفاصيل هذه الديمقراطية بحيث تستقر العلاقةبين الحاكم والمحكوم، وبين الدولة والأحزاب، وهكذا، فكل ما نأمل فيه بالنسبة لمستقبل مصر لم يتم وضع أسس ثابتة له وتفاصيل كاملة بحيث تصل إلى حالة مستقر مئات السنين كما هي الحالة مثلاً بالنسبة لأمريكا وبالنسبة لدول أوروبا المتقدمة.

- **يتحدث الرئيس حسني مبارك كثيرًا عن دور المثقفين في المرحلة القادمة، ما هو تصورك لهذا الدور؟**

- دور المثقفين لا يقوم على تصريح من الرئيس، دور المثقفين يكون على مسئوليتهم عن أنفسهم وإتاحة الطريق أمامهم لتحمل هذه المسئولية، أو أي فرد آخر فلا يجب أن تكون من مهامه تحديد دور هؤلاء يعين المثقفين، المثقف معناه أنه إنسان مبدع، خالق أو رئيس متطور، يبدع بنفسه، ولنأخذ مثالاً عندما الرئيس ويعين أحد المثقفين رئيس لجنة، وزارة، ونتيجة هذا التعيين تعتمد على المثقف نفسه، فهو مسئول عن نفسه وبعد هذا فمجال المثقفين أوسع من التوجيهات أو التعيينات الرسمية، إنها مسئولية تصل إلى الشارع نفسه.

إحسان وابنه محمد

- **محمد عبد القدوس صحفي شاب ابن إحسان عبد القدوس، متحفظ عليه الآن ترى كيف يرى الأب هذه المرة وضع ابنه هناك في السجن؟ -**

أتعمد أن أتعامل مع ولدي محمد وأحمد، منذ وعيهما على أن أحمل كلا منهما مسئولية نفسه وأنا لا أملك ولا أعطي نفسي أي حق عليهما إلا مجرد إبداء

الرأي إذا استشاراني، محمد عمل بالصحافة، وصمم على أن يبدي رأيه السياسي ولا شك إنني مختلف معه، لا في الأهداف الوطنية، ولكني أختلف معه في طريق الوصول إلى هذه الأهداف ولكن الخلاف لم يؤثر أبداً في العلاقة الأبوية التي تربطني به، ولا في احترامي له بل إني أضع نفسي دائما بجانبه، وأترك له نفس الحرية التي أتركها لنفسي وأتساءل دائماً: ربما كان هو أصوب مني في رأيه خصوصًا وأني سياسياً مع أقرب الناس إلى، وكنت أعتقد أنني الأقرب إلى الصواب ولأنني أعتقد أن كثيرًا من آرائي هي التي تحققت فعلاً فربما كانت آراء محمد أيضاً هي الأصوب وهي التي يمكن أن تتحقق.

- **كيف تقول إن هناك خلافًا بينكما، والوسيلة واحدة وهي الكتابة؟**

- الاختلاف في الآراء، نحن نتكلم عن الديمقراطية، وإن كان موقف كل منها مختلفاً عن الآخر.

- **ما هي الجذور التي خرج بها محمد إذن؟**

- - قد لا يعلم الناس أنني من عائلة متدينة كلها، محمد ليس غريبًا في اتجاهه عن العائلة، جدي الشيخ أحمد رضوان كان من خريجي الأزهر، ومن رجال القضاء الشرعي وكان شخصية متحفظة بحكم تدينه، واشترك في الحياة السياسية وإن كان معجباً بالفن في حدود هذا التدين وكان يحضر عنده كل المطربين، عبده الحامولي ورجال عصره من أهل الفن وقد أطلق على ابنه اسم عمنا عبد القدوس رضوان وعبد القدوس اسم عازف ناي كان جدي معجباً به ومع الأيام ضاع اسم رضوان وأصبح أبي يحمل اسم عبد القدوس وهو الوحيد الذي يحمل هذا الاسم في العائلة، وباقي العائلة لا يزال يحمل اسم رضوان وقد لا يعلم الكثيرون أننا من القرية أصلاً، فنحن من قرية شبرا اليمن التابعة لقرية كفر مأمونة من محافظة الغربية وكنا نملك هناك خمسة أفدنة وكنت أتردد على هذه القرية حتى سن العاشرة وكنت أقضي فترة كل سنة في هذه القرية ثم

انفصلت عن القرية بعد وفاة جدي والعائلة لا تزال في القرية وتحمل اسم رضوان.

الأم والأب والغياب المستحيل

انفعل إحسان عبد القدوس خلال هذا الحديث مرة واحدة، ارتعش صوته، وتسللت إليه نبرة من الشجن العميق وتجمع مشروع دمعة كبيرة في عينيه عندما تحدث عن أمه فاطمة اليوسف ووالده محمد عبد القدوس، بدأ الرجل يحلق في ذكرياته معها.

ورغم سنوات العمر إلا أن القلب لا يزال أخضر، والعين تجود بدموعها مع أوقات الحزن.

- **سألته: لماذا لم تكتب عن أمك؟** -

لا أستطيع الكتابة عن والدتي لأنني كلما تذكرتها تغلبت عواطفي على فكرى، فأعجز عن أن أمسك بالقلم وأسيطر به على هذا الفكر حتى أكتب عنها، وأنا أخشى دائماً إذا كتبت عنها أن تتغلب عواطفي فتؤثر في سياق ما أكتبه، وقد لا يحقق ما أكتبه نجاحًا يليق بذكرى والدتي، أنا عواطفي حساسة وتتغلب على لدرجة أنني أيضاً لا أستطيع الكتابة

عن والدي الأستاذ محمد عبد القدوس الذي أعتبره قمة من قمم الفن سواء في التمثيل أو في الكتابة المسرحية.

- **هل كان والدك كاتباً؟.**

نعم والدي كتب ٣ مسرحيات كانت في أيامه تعتبر تطوراً في المسرح العربي ومثلت على مسرح الأزبكية، مثلت إحداها عزيزة أمير، أذكر منها: «ناهد شاه» وهي مسرحية استعراضية ومسرحية «معروف الإسكافي» ومسرحية أطلق عليها والدي «إحسان بيك». وقد تعمد أن تعرض في المسرح في يوم عيد ميلادي، وأذكر أنه في يوم عرضها أن أخذني وركبنا معا الترام فأخذ يشير إلى الإعلانات المسرحية وكلها تحمل اسم «إحسان بيك»، كان هذا اليوم من أجمل أيام عمري وهذه المسرحية تحولت إلى فيلم سينمائي هو الثاني في تاريخ السينما المصرية وكان اسمه بنت النيل، وكنت أذهب مع والدي عندما كان يذهب إلى السيدة عزيزة أمير لكي يكتب السيناريو، وأنا أدين لوالدي بهواياتي الأدبية

والفنية، وقد بدأت الكتابة تقليداً له، وكان أول ما كتبته في العاشرة من عمري مسرحية حاولت أن أقلد بها والدي، كان والدي يكتب أيضاً الشعر والزجل وقد حاولت أن أكتب الشعر والزجل تقليداً له.

وأول ما نشر لي في الصحافة قصيدة من الشعر المنثور، أرسلتها بدون توقيع إلى روز اليوسف التي كانت تصدر يومياً وكان يوسف حلمي هو المسئول عن الأدب وبعد نشرها، اكتشفت أمي أنني الكاتب وقد أنزعجت من ذلك لدرجة أنها حرمتني من مصروفي لأنها كانت تخشى أن أصبح مثل والدي فنانًا فوالدي فنان مائة في المائة، حدث هذا سنة ٤٣٩١، وكانت سني في ذلك الوقت ٥١ سنة، كانت أمي تريدني أن أكون صحفياً فقط، أما حكاية الأدب والفن، فكانت تخشى على منها بدون حد وكانت والدتي تريد أن أكون صحفياً أدير الجريدة من بعدها.

تجاهل النقاد لكاتب الـ ٠٠٥ قصة

- **وصلت الآن إلى الجزء الحساس في الأمر كله، لماذا تجاهل النقاد والباحثون والدارسون نتاج**

إحسان الكاتب مع كل هذه الغزارة في الانتاج الأدبي؟ هل هو موقف، أم ماذا؟

يقول برحابة صدر: -

الواقع أنني أضع ظروفي الخاصة كسبب رئيسي لموقف النقاد مني، لقد نشأت كصاحب جريدة وكرئيس للتحرير وهذا أثر على موقف النقاد مني، لست مجرد كاتب قصة أو مجرد أديب، إذا مدحني أحد قيل أنه ينافق صاحب الجريدة ورئيس تحريرها، وقد كان النقاد الذين يكتبون في روز اليوسف يهاجمونني لهذا السبب، وأذكر أن فتحي غانم قد كتب مقالاً ضدي حيث أنه بدأ ناقداً في روز اليوسف، كان المقال ضد أحد قصصي، وقد هاجم هذه القصة بعنف شديد وقد أجزت نشر هذا المقال وسمحت بنشره فإذا بوالدتي روز اليوسف تصرخ وتثور لهذا التصرف وتقول كيف تسمح لأحد أن يهاجمك في مجلتك؟ ولكني قلت لها: إنني مؤمن بحرية النقد ومع هذا، كان هناك من كتبوا عني لقد

كتب توفيق الحكيم، والدكتور لويس عوض، ويحيى حقي، كتبوا عنى بصورة جيدة.

في بعض الأحيان الأخرى، كان النقاد يهاجمونني، أو يتجاهلون إنتاجي بسبب بعض الظروف السياسية، مثلاً اتهامي أنني كاتب جنس لم يكن قائماً على دراسة لإنتاجي الأدبي، ولكنه ينطلق من موقف سياسي ضدي فأنا لا أتعمد كتابة الجنس أبداً ، ومشاهد الجنس في قصصي ليست متعمدة، وهي أقل إثارة من مشاهد الجنس في كثير من القصص التي يكتبها كتاب آخرون، وعندما نوقشت روايتي (أنف وثلاث عيون) في مجلس الأمة المصري، كان الدفع لذلك سياسياً أيضا وليس أدبيًا. وأنا أعتقد أن طبيعتي هي التي تدفعني إلى التحرر الكامل عندما أكتب، وهذه الطبيعة جعلت لي لوناً غريبًا عن اللون العادي من الكتاب ولهذا سيتطلب إنتاجي الأدبي وقتاً طويلاً حتى يجد من يقدم دراسة نقدية.

- **هل جماهيريتك هي التي جعلت النقاد يعادونك؟**

- هذا يعود أساسًا إلى قيمة الكاتب وجديته، أنا الآن أعتمد على رأي القارئ أكثر مما أعتمد على رأي

الكاتب وأعتقد أن الكاتب أصدق في التعبير من الناقد، وأنا نفسي درست الأدب معتمداً على قراءة الإنتاج الأدبي العالمي لا على ما يكتبه النقاد والدراسون، لهذا فأنا أعتز بأني ما زلت أحتفظ بقرائي وما زلت أرفع توزيع أي مجلة أو جريدة تنشر قصصي بصرف النظر عن كتاباتي السياسية.

عزلة الكاتب: لماذا ؟

- **يعيش إحسان عبد القدوس في عزلة، قليلون من الأدباء الذين عرفوه شخصياً ومن النادر أن تشاهده في مكان عام مع أن إنتاجه الأدبي يضج بصخب الحياة، فلماذا هذه العزلة؟**

يقول: هذه العزلة نتيجة الظروف السياسية التي تعرضت لها، كانت إن جلست في مقهى التف حولي البعض ولا ينظر إلى الجلسة كما ينظر إلى جلسة نجيب محفوظ ولكنها تفسر بصورة سياسية، وهذا بدأ من صغري وحتى قبل الثورة إلى حد أن تعودت فعلاً على الإنعزال، ثم إن تطور حياتي العملية دفعتني أكثر إلى العزلة فقد كانت مسئولاً عن مجلة روز اليوسف التي أدت دوراً كبيراً في

إعداد الثورة وكان كل الملتفين حولي حتى الأصدقاء تربطني بهم صداقة عمل أو صداقة ثورة لا مجرد صداقة شخصية ولذلك عندما فقدت عملي في روز اليوسف تبعثر كل شيء حولي، وقد لا تعلم، ولعلك تعلم، أني أتجنب دائماً الأحاديث الصحفية وأتجنب الظهور في التليفزيون وأتجنب الكلام في الإذاعة لأن هذه العزلة أصبحت من طبيعتي وأصبح كل ما يربطني بالناس هو أن أكتب ليقرأوا. كل ذلك كان نتيجة الظروف السياسية التي مرت بي ولو أني الآن ألوم نفسي وأتحايل على نفسي حتى أخرج إلى المجتمعات وخصوصًا الاجتماعات الأدبية والصحفية، وأظهر التليفزيون والإذاعة حتى كدعاية لنفسي وتقريبًا للقراء. ولكني كنت ولا زلت أفضل أن يقرأ لي الناس بدلاً أن يقرأوا عني وأن يقرأوا لي بدلاً من أن يسمعوا مني.

- **آثارت روايتك (لا تتركني هنا وحدى) الكثير من الجدل، هل كتبتها من وحي اللحظة التي نشرت فيها؟ -**

في الواقع إن هذه القصة تدور حول مجتمع اليهود في مصر أول اليهود المصريين وهي ليست من

قصص اليهود في مصر ولكن هذه القصة أثارت اهتمامًا خاصاً لأنها نشرت في وقت المبادرة، والغريب أنهم في العالم العربي رفضوها في حيث أن في إسرائيل نفسها قامت ثورة ضد هذه القصة بسبب الصورة التي قدمتها لليهود في مصر، حتى أنني نشرت في الأهرام رسالة جاءتني من إسرائيل تهاجم القصة ورددت عليها. -

كان الاستياء العربي من الرسالة والرد عليها أكثر من القصة.

- القصة تدور قبل المعاهدة ولقد فسروها هكذا خطأ، إن القصة تدور قبل سنة ٨٤، وأنا شخصياً أحب أن أقول لك إنني فخور بهذه القصة وأتمنى لو عرضت في التليفزيون أو السينما ولكن الظروف السياسية أو تفسير الظروف السياسية يحول دون عرضها في السينما والتليفزيون.

بهذه المناسبة أحكي لك حكاية ذكرتنى بها عن التأثير السياسي على كل ما أكتبه من قصص، أنا ضحية دائماً لهذا التأثير وأذكر أنني كتبت قصة فسرت على أنها اتهام خطير

لجمال عبد الناصر في أيام حكمه، لأنها قصة كنت أقول فيها ما حدث قبل الثورة يحدث بعدها في التليفزيون ويطلب من المسئولين عن التليفزيون إلا يغيروا منها شيئًا. وقد قال لي أنور السادات: إن عبد الناصر كان في اجتماع معه ثم أستأذن منه وقال إنه سيصعد ليجلس أمام التليفزيون لكي يرى قصة إحسان عبد القدوس، قد طلبتها وأخشى أن يكونوا عدلوا فيها، وهذا دليل على اختلاف التفسيرات، إلى حد أن البعض يتهمني بمعارضة الحاكم في حين أن الحاكم نفسه يرى أن ما كتبته هو درس يجب أن يعرض على الشعب.

- **وقد وقف عبد الناصر معك في معركتك مع شيخ الأزهر، هل تذكر القصة؟**

- في سنة ٤٥٩١ استطاعوا في الإذاعة أن يقنعوني بأن أقدم برنامجًا أسبوعياً كما كان يفعل فكري أباظة يرحمه الله، وكنت أتكلم كل أسبوع وأنهي كلامي بكلمة تصبحوا على خير وتصبحوا على حب فثار بعض المشايخ لأن كلمة الحب عندهم لا تعني سوى اللقاء الجنسي وكأني كنت أطلب من كل رجل وفتاة أن يمارسوا الجنس! ووصلت الضجة إلى عبد

الناصر، ورغم أنه كان ضاحكاً وغير مقتنع بهذه الضجة التي آثاروها ضدي فقد عرض على أن أغير كلمة حب فتصبح تصبحوا على محبة فرفضت تغيير الكلمة وقلت له أنني أريد أن يتعود الناس على المعنى السامي والنظيف لكلمة الحب، وسمح لي عبد الناصر بأن أستمر فعلاً وكانت النتيجة أنه هو نفسه في خطبة يستعمل كلمة الحب لا المحبة، كما كان يكررها كثيرًا السادات، ولكني تركت سنتها الإذاعة بسبب تدخل الرقابة فقد وجدت أنني لا أستطيع أن أتحمل تدخل الرقابة فيما أكتبه في روز اليوسف وتدخلها فيما أقوله في الإذاعة ومن يومها أي منذ سنة ٤٥٩١ وحتى الآن لم أتكلم في الإذاعة.

إحسان والسينما والمسرح والفنان والتليفزيون والجماهير

كان لا بد من حديث معه حول عدد من الفنون له المهتم بها بصفة خاصة.

- **هل تكتب قصصك للسينما خصيصاً؟**

- لم أكتب أي قصة للسينما، أنا أكتب إلى القراء فقط ثم بعد ذلك يحول ما أكتبه إلى سيناريوها سينمآئية، وأنا نفسي كتبت عددًا قليلاً من السيناريوهات لا تزيد على خمسة ولكني وحيث إن سيناريوهات السينما في أمريكا وأوروبا تطبع في كتب وتوزع للقراءة مثل المسرحيات فالمسرحيات رغم أنها تشاهد على المسرح إلا أنها تطبع للقراءة فلماذا لا تطبع السيناريوهات أيضاً؟ وهذا ما كنت أعنيه في الحملة التي أثرتها عن الأدب السينمائي فكما أن هناك أدباً مسرحيًا فلماذا لا يكون هناك أدباً سينمائياً؟

- **في مواجهة السينما والمسرح والتليفزيون والفيديو، ألا تعد الكلمة المكتوبة في خطر؟**

- لا شك أن نسبة القراءة قد قلت في أنحاء العالم وهذا يؤثر في توزيع الكتب، ولقد وجد الجيل الجديد أنه من السهل الجلوس أمام التليفزيون من أن يفتحوا كتابًا يقرءونه، وحتى العلوم التي تدرس في

المدارس تذاع في التليفزيون وتسجل فـي الفيـديو وكأننا في طريقنا لإلغاء دور الكلمة.

- **إن شريط الكاسيت في طريقه ليحل محل الكتاب.** -

أنا نفسي سجلت بعض قصص على أشرطة كاسيت وإن كنت لا أعتقد أن الاستماع أضعف من القـراءة ولذلك مهما قلت عن قدرة التليفزيون والإذاعة فلـن تغنينا أبداً عن القراءة.

- **هل تذهب إلى مسرح اليوم؟**

- للأسف لا أدري لماذا لا أذهب، أو ماذا حدث لـي ولكنها ظاهرة عامة، لا أتـردد كثيـرًا علـى دور السينما والمسرح إلا إذا كان هنـاك مناسـبة قويـة تدفعني إلى المشاهدة، أنا من هذه الناحية أعتمد على التليفزيون والفيديو وأهم شيء عندي القراءة. وأنـا أقرأ حالياً حتى التاسعة مساءاً ومن التاسعة وحتـى وقت نومي وأنا جالس أمام التليفزيون قبل ذلك كنت أقرأ حتى أنام. أما الآن فإنى أكتفي بـالقراءة حتـى التاسعة فقط.

- **كيف تنظم علاقتك بالواقع الاجتماعي في مصر الآن؟ -**

لست منقطعاً عن المجتمع انقطاعاً كـــاملاً، عنـدي زوار من هذه الزيارات أحصل على الكثيـر مـن معلوماتي الاجتماعية كما أنني أعتمد على القراءات الصحفية الداخلية والخارجية لكي أرتبط بالواقع، إن كل ما ينقصني هو الارتباط الذي يحمل صفة معينة، ليس لدي ارتباط بالنقاد أو الجيل الجديد أو المجتمع بشكل عام.

- **قراؤك هم شباب الخمسينات هل ما زالوا معك أم أنك استبدلت بهم شباب السبعينات؟**

- الحمد الله أعز نعمة أشـكر الله عليهـا أن الأجيـال تتعاقب على وأنا واقف في مكاني جيل بعـد جيـل. قصصي طبعت أكثر من ثماني مرات وكانت هناك أجيال لم تولد عند نشر هذه القصص لأول مرة ومع ذلك قرأتها عندما وصلت إلى مرحلة الإدراك، لقـد كنت متهمًا من قبل بأن كل قرائي من الشباب ولكني اكتشفت أنه حتى الكبار والعواجيز يتتبعون إنتاجي.

- **ألا تفكر في كتابة مذكراتك؟**

- نفس العائق الذي يمنعني من الكتابة عن أمي وعن أبي يمنعني أن أكتب مذكراتي وإن كانت ذكرياتي تنعكس في قصصي وفي مقالاتي السياسية، إنهم يلحون على كثيرًا ولكني عندما أفكر في المذكرات أخشى أن أترك المستقبل وأعيش في الماضي، وأنا حتى الآن أحتفظ بارتباطي بالمستقبل أكثر من الماضي، أحتفظ بالآمال، أفكر في المستقبل، فالمستقبل هو البناء والماضي هو شكل من أشكال الفرجة على الماضي.

أفكر أن أكون في حركة بناء عن أن أكون في حركة فرجة.

- **تتراجع المرأة في قصصك الأخيرة لماذا؟**

- هذا كلام غير صحيح لدرجة أن هناك ناقدة كتبت عن قصتي (أيام في الحلال) قائلة يبدو إنني (عجزت) لأنني لم أكن صريحًا في عرض مواقف البطلة وهذا دليل العجز، ونسيت الناقدة أن القصة كلها تقوم على الموضوع، مثلاً القصة التي تنشر

حالياً (يا عزيزي كلنا لصوص) تخلو تماماً من المواقف الغرامية إلا أن موضوع القصة يفرض هذا، إن اختلاف الموضوعات هو الذي يحدد التفاصيل، وأنا أكون صادقاً بدون حد من الموضوع الذي أكتبه ولا أتعمد أي مشاهد في القصة.

- **لم تكتب؟**

- أكتب للمتعة الشخصية، لا أستطيع الحياة بدون كتابة، فهي قضية عمري وهي هوايتي الوحيدة، بدون الكتابة لا أعرف كيف أعيش ولا أعرف كيف أقضي وقتي، بدون الكتابة لا يصبح لهذا العالم أي معنى.

- **كم مرة تكتب العمل؟**

- الكتابة الأولى فقط، ثم أترك العمل بعد ذلك مباشرة أخاف من مراجعة العمل وإن راجعته سأكتب عملاً آخر، أقرأ العمل بعد جمعة في المطبعة فقط أي إنني إن لم أكتب لا أرضى عن نفسي أبداً وعندي شك في نفسي، والقارئ هو ملاذي الوحيد واتصال هؤلاء القراء بي هو سؤلاي الوحيدة فهناك عشرات القراء

والقارئات يتصلون بي ويحضرون إلى بعضهم يعتبروني طبيبًا نفسياً وهناك العديد من الجيل الجديد من الكتاب يعرضون على إنتاجهم الجديد، من الكتاب يعرضون على انتاجهم الجديد، صحيح أنني ليست لي ندوة مثل نجيب محفوظ أو توفيق الحكيم ولكنهم يحضرون إلى في البيت.

- **هل تعجبك سينما اليوم؟**

- لقد تغيرت السينما وهذا التغير مرجعه إلى الإنتاج فالسينما فن يعتمد على رأس المال ورأس المال هو الذي يتحكم في أي عمل تشاهده، إن شاهدت أي عمل أقول إن وراءه منتجا جيداً، زمان كان يقوم بالإنتاج السينمائي شركات متخصصة تفهم الفن السينمائي أما الأن فيقوم بالإنتاج السينمائي أفراد لا علاقة لهم بالفن وهذا أدي إلى تدهور هذه الصناعة العظيمة كما أن الظروف العامة ساعدت على هذا التدهور.

فالمواصلات مثلاً وأزمتها ساعدت على تدهور السينما، فمعظم دور العرض الكبيرة توجد في منطقة وسط

القاهرة وأغلب العائلات ترفض النزول إلى وسط القاهرة بسبب الزحام، هذا الزحام الذي لم نقم له أي حساب من قبل ورغم تدهور السينما فإنه يوجد في مصر فن عظيم ظل متألقاً رغم أسوأ الظروف، أنه فن التمثيل، فهو الفن المصري الوحيد الذي يبدو أنه أكبر من أي أزمة ،أقوى من أي مشكلة فلا يزال لدينا أعظم الفنانين في العالم العربي كله.

● ما هو انتماؤك السياسي؟

- أنا منتم سياسياً لحرية الرأي.. بدأت هذا الانتماء عندما كنت طالباً في الجامعة وحتى الآن، وحرية الرأي هي قضية عمري الأساسية وفي سبيل حرية رأيي، ولكي أحافظ عليها كنت أرفض طوال عمري الانتماء إلى أي حزب سياسي أو إلى أي جماعة سياسية بل كنت أرفض الارتباط بصداقه شخصية إن أخذت لوناً سياسياً، جمال عبد الناصر كان صديقي قبل الثورة واختلفت معه برغم صداقتنا وظلت الصداقة رغم الخلاف في الرأي.. حرية الرأي هي الركيزة الأساسية التي تقوم عليها شخصيتي الأساسية، وحرية الرأي في تصوري فوق

المعارضة وفوق التأييد فأنا أعتبر أنني حر إلى درجة أنني قد أؤيد ثم أعارض ثم أؤيد لأن الرأي ينطلق من حالة معينة ومن وضع معينفقد أؤيد الحاكم من ناحية وأعارضه في ناحية أخرى.

بدلاً من الخواتيم

خلال ساعات هذا الحديث، شرب إحسان عبد القدوس فنجانين من القهوة ودخن سيجارين من النوع الطويل، ورد على تليفونين، الأول كان من متحدثة تشكو من صمت تليفونها، والثاني كان من متحدثة تسأل عن حفيده محمد ابن ابنه محمد، والذي يناديه بكلمة مودي، وخلال الحديث قام إحسان من مكانه مرتين، الأولى لكي يسأل زوجته عن اسم القرية التي تنحدر منها العائلة في محافظة الغربية، فذاكرته ضعيفة جداً ولا تذكر أي شئ، والثانية لكي يرينا بعض أشيائه الخاصة، وهي ٢٠٠ صورة خاصة، وتمثال له في السجن، ويداه مقيدتان بالحديد، والكوب الذي كان يشرب به الماء في السجن، وفي مكتبته غابة من الهدايا البسيطة التي جلبها معه من كل مكان في العالم، من كل دولة هدية تعكس شخصية هذه الدولة، وكان محمد ابنه هو الحاضر الغائب

خلال الحديث وحفيده يداعب جده، وصدق من قال إن أعز الولد ولد الولد.

وفي آخر الحديث، كان الرجل متعبًا قال إنه أصابه صداع من كثرة الكلام، وكان ينطق الفصحى العربية مشكوراً بشكل سليم وكان بطئ الكلمات وكان في غرفة مكتبة تليفزيون صغير وجهاز فيديو.

يوسف إدريس يحاكم كل الناس

- حذر يوسف السباعي من اليسارالمصري، هو السبب في كثير من أخطاء العمل الثقافي.
- لا يوجد كاتب يميني أبداً.
- نحتاج ربع قرن لنسترد الحركة الثقافية من بيروت.
- لا خوف على المكاسب الشعبية مهما حدث.
- الحراسة فرضت ورفعت بقرارات فوقية ولا دخل للشعب فيها.

هذه أول مرة أرى فيها يوسف إدريس وهو يضع نظارة طبية على عينيه، وهذه أول مرة أراه هادئاً يشع من حوله صمت له صوت، رأيته في مكتبه بجريدة الأهرام يراجع مقاله الأسبوعي، جلست أمامه نصف ساعة وهو هادئ،رحت أبحث عن الإعصار الدائم بداخله من التوتر

والبحث واللهفة الحبور في أعماقه، شربت ملامحه بنظراتي فوجدتها ساكنة، بدا لي السندباد كصورة مرسومة ورمي القلم واستدار لي، العتاب قبل السلام وبعد السلام عاد الإعصار إلى حياته، في شعرنا الحديث بيت عملاق يقول :«السندباد كالإعصار إن يهدأ يمت». «يوسف إدريس كالإعصار إن يهدأ يمت». وبالمثل تستعير التشبيه العملاق كي نقول وما زال الرجل يعانق قلقه وعذابه حاملاً صخرته كل يوم، كل ليلة، كل ساعة، لأصفه أولا: على الرأس شعر أبيض كالقطن المندوف تناثر وسطه شعيرات ما زالت تحتفظ بسمراتها الغامقة، يرتدي قميص مربعات كبيرة، يقول لك إنك أمام شاب بفكره وسلوكه وموقفه من الحياة.

يوسف إدريس في الأربعينات من عمره الآن. بدأ النشر في أوائل الخمسينات وتفرغ تمامًا للكتابة مع مشارف الستينات والنتيجة الآن مشرقة، أكثر من مجموعة قصص قصيرة، روايات، مسرحيات، كتب أدبية، وآثار كل هذا النتاج الأدبي الكثير من الدراسات والشروح والتعليقات وربما المعارك الأدبية، يوسف إدريس أحد الكتاب القلائل الذين يشكلون تيارًا اجتماعيًا متكاملاً لإنتاجه الأدبي والفني،

وهذا شيء لم يتوصل له الكثير من كتابنا حتى الصف الأول.

شلة الغد. بعد الثرثرات الأولى التي انتهينا منها سريعًا سألته عما يكتبه الآن، قال لي: إنها مسرحية بعنوان (شلة الغد) الموضوع عن شباب اليوم رجال الغد في مصر.

سؤالي الثاني عن رأيه في الشباب الآن عموماً، قال: أنا حريص على رؤية الشباب والاتصال بهم، ولو عزلت عنهم لحظة واحدة لمت، فأنا أتعلم منهم الكثير، أنا أتعلم حتى من أطفالي.

- **بتحديد أكثر ما رأيك في شباب اليوم؟**

- شباب اليوم له مزايا كثيرة.. أكثر من شبابنا، منها الصدق مع النفس، وهو الشيء الذي حاول جيلنا أن يفعله، من مزاياه عدم الخجل من الذات من أن جيلنا عانى كثيرًا بسبب الخجل من ذاته وقد سبب له هذا الكثير من الإحباطات اليومية المستمرة، الجيل الحالي حريص على تفرده، ونحن تربينا كأسنان المشط مع أن الإحساس بالتفرد والحرص عليه ميزة

إنسانية كبرى، شباب اليوم فيهم من الشعر والطفولة أو الجموح الشيء الكثير.

- **وعيوبهم؟**

- الغرور، وهو الدرجة الأولى إلى الجهل، وينتج عن هذا عدم القراءة، كما أن طموح شباب اليوم يحيرني، طموحه أن يعيش فقط لا يفكر في المستقبل البعيد أو البناء، شباب اليوم حرمانهم أقل وبالتالي فإن استغراقهم في الحياة اليومية أكثر.

الثقافة المصرية

*** ما رأيك في الحياة الثقافية في مصر الآن(١)**

- السؤال كبير يشمل أكثر من شئ، أحب أن أبدأ بالمجلات الثقافية وأعتقد أن المسئول عن عدم جودة المجلات الثقافية في مصر هو حذر يوسف السباعي من اليسار وهذا الحذر هو المسئول عن كثير من الأخطاء الموجودة في قيادة الحركة الثقافية في مصر، لقد انتقلت الحركة الثقافية في مصر إلى بيروت واسترجاع مصر لتلك الحركة يحتاج ٥٢سنة من الكفاح وانتقال الحركة إلى بيروت

(١) جرى هذا الحديث سنة ٤٧٩١.

لم يتم على مستوى الكتابة فقط، في بيروت يتكلمون عن مصر كثيرًا والكلام عن مصر هناك أحد أسباب الرواج ولكننا في مصر ممنوعون من الكلام، عندنا هنا ألف مليون تابو.

*** ونشر الكتاب؟**

- السبب هنا مختلف، فكرة التأميم الخاصة بدور النشر مع عدم إجلال دار النشر قطاع عام محل دور النشر التي أممت، أنا لا أرفض التأميم ولكنه بالصورة التي تم بها والكيفية التي جرى بها أساء كثيرًا للحركة الثقافية لأنه قتل الناشرين الخاصين ولم يخلق ناشراً عاما بديلاً، وكانت النتيجة أن ماتت حركة النشر وبالتالي ماتت حركة الكتاب المصري في العالم العربي، وهكذا أهدينا بيروت الكتاب العربي والحركة الثقافية دون أن تبذل بيروت مجهودًا في سبيل الحصول على هذا المركز والنتائج بدأت تظهر الآن في هبوط مستوى توزيع الكتب وهو هبوط له أسباب أخرى أيضا من أهمها ارتفاع نسبة الأمية في مصر ويكفي أن نعلم أن نسبة الأمية في سنة ٢٥٩١ كانت ٥٦ في المائة وأن هذه

النسبة ارتفعت سنة ٣٧٩١ لكي تصبح ٠٨ في المائة وتلك مشكلة أخرى معقدة وعسيرة أمام توزيع الكتاب في مصر.

العقلية المصرية.

- **من خلال تعاملك مع الشخصية المصرية ككاتب ما هي أبرز عيوب العقلية المصرية؟ -**

تحتاج هذه العقلية إلى قدر كبير من العقلانية والعلمانية وهى تفتقر إلى التدبير غير موجود في حياتنا إطلاقاً، حتى الجرائم ترتكبها بشكل تلقائي ومباشر بمعنى أن حياتنا تفتقر إلى التخطيط، فالرجل العظيم في نظري هو مدير عظيم وبما أن أعداءنا مدبرون عظام فلا بد أن نتعلم هذا منهم، هناك مأخذ أخرى، إن المصري لا يأخذ عمله بالقدر المطلوب من الجدية، والجدية مطلوبة في تناولنا لأي أمر من أمور حياتنا كما أن الإحساس بالزمن مشكلة أخرى، الزمن مفقود في حياة المصريين يضاف إلى هذا كله القدرية في فهم المصري للحياة، فالمصري يتصرف في حياته وهو يعتمد على قوة مجهولة تقف بجانبه وتسانده تصل إلى درجة رمي نفسه في الهلاك

معتمداً على أن هذه القوة لا بد أن تنقذه في اللحظة المناسبة.

مصر الآن ومصر الغد

- **أكثر من عشرين سنة مضت وأنت تكتب، أما تزال المشاكل الاجتماعية كما هي بمعنى آخر هل تغير الواقع في مصر كثيراً؟**

- المشاكل الآن أصبحت أكثر تعقيداً وكثر إلتواءاً، وبالتالي مطلوب أن ينظر لها الإنسان نظرة أعمق من الأول ثم إن المشكلة الواحدة أصبحت الآن متعددة الجوانب وليست أحادية الجانب وعمومًا فقد أصبحت أكثر ميلاً في الفترة الأخيرة إلى العزف على العاطفة البشرية باعتبارها الأصل، بينما لم أعد شديد الحماس للعقلانية المحضة، إن الوجدان هو لأصل في صدور العمل الفني والأصل في تلقيه أيضا، وبما أن العمل الفني يقاس بأثره أي بالتحول والتغيير الذي يحدث في النفس، نفس المتلقي فإن التأثير على الوجدان يحدث أثرًا أعمق بكثير من مجرد الاهتمام العقلي والرغبة في التفكير.

- **كيف ترى مصر الغد في ضوء ما يحدث فيها الآن؟ -**

في مصر سمة عامة منذ فترة طويلة، وهي الميوعة الطبقية، التناقض الطبقي فيها غير واضح، لو قارنا مصر بلبنان لوجدنا الأوضاع الطبقية هناك أكثر وضوحاً من مصر وبالتالي فالمستقبل هناك أيضاً محدد جداً لدرجة الحسم في مصر نحن نقول للعامل يا باشمهندس وهو نفسه يحرص عل هذا وكل طموحاته لا تمت لواقعه العمالي بأي صلة، أتمنى أن تخلق التطورات التي تحدث في مصر قدراً من التحديد الطبقي يسهل معه التعامل مع المجتمع في كل المجالات العامة والخاصة، أسمع، أنا متفائل جداً بالنسبة للسنوات القادمة فلا خوف على المكاسب الشعبية إطلاقاً، مهما قيل ويقال عما يحدث في مصر الآن، أنا مطمئن جداً على مكاسب الجماهير الشعبية. ولنأخذ موضوع الحراسات مثلا؛ ورغم ما أثاره هذا الموضوع من جدل ونقاش على كل مستويات الدولة؛ إلا أن رأيي الشخصي أن فرض

الحراسات ثم بقرارات فوقية صرفة ورفعها الآن أيضاً يتم بقرارات فوقية ولذلك فكل هذا تم ويتم بمعزل عن الشعب أي الجماهير الشعبية، وهذا سبب لا مبالاتها غير عادية، وهذا سبب قولي إنه لا خوف على المكاسب الشعبية أبداً مهما حدث ويحدث في مصر.

أنا اشتراكي أؤمن بالحرية

- **أعتقد أنك دخلت إلى الأدب من خلال الحركة الوطنية وهذا سهل انتمائك الفكرى في البداية، ألا يزال هذا الانتماء حتى الآن؟**

أنا اشتراكي ديمقراطي شديد التمسك بالحرية، تقول إن في ذلك تناقضا وأنا أرفض قولك هذا، لا يجوز أي تناقض بين الاشتراكية والحرية فاشتراكية الإجراءات لا بد أن تكملها اشتراكية الرأي وأي من هذين الجناحين لا بد أن يكمل الآخر.

- **هل تقرأ للأدباء الشبان؟**

- اقترح تعديلا صغيرا بالسؤال، كان بودي أن تقول ماذا تعلمت من الأدباء الشبان وهو يوضح لك مدى

حرصي ومتابعتي لهم، أنا حريص إلى أبعد الحدود على قراءة كل حرف يكتبه الشبان سواء في مصر أو في العالم العربي، وأكرر إنني تعلمت وما زلت أتعلم منهم كل يوم، ولكن لا بد من تقرير أن الكثير منهم كان رد فعل للنكسة وقليل جداً منهم من فهم الأصالة وبالتالي فالسؤال الهام هو: من سيستمر؟ الاستمرار لأنه هو القضية رقم واحد بالنسبة إليهم ولذلك من الصعب الحكم على من سيظل يكتب.. لا بد أن يمر الكاتب باختيار الزمن، انتاجه نفسه لا بد أن يمر باختبار الزمن أي إن الحكم على أي عمل أدبي من خلال وضع اليوم يعد حكمًا ناقصاً.

- **حدد بعض الذين لفتوا نظرك منهم؟**

- في الشعر أمل دنقل، وفي القصة القصيرة والرواية إبراهيم أصلان ويحي الطاهر عبد الله وعبد الحكيم قاسم وإسماعيل ولي الدين وجمال الغيطاني ويوسف القعيد وصنع الله إبراهيم ومحمد روميش، في المسرح مصطفى بهجت مصطفى، في النقد هناك

ناقد شاب ممتاز سيكون له مستقبل واعد هو عبد الرحمن أبو عوف وهو يحتاج إلى انضباط داخلي.

- **القصة مثارة الآن وسط جيل الشبان من الأدباء وهي قضية الانتماء الفكري والسياسي فقد خرجوا جميعا في فترة ألغيت فيها الأحزاب السياسية، والآن تثار هذه القضية من جديد، ما رأيك فيها؟ -**

أعتقد أن وجود الأحزاب السياسية ضرورة هامة بشكل أو بآخر الغريب حقا أن الحركة السياسية في مصر أثرت على الأدب فمعظم الكتاب يمثلون حركات سياسية ولقد كانوا قادة سياسيين في فترة ما وكان هذا نتيجة الفراغ السياسي.. ثم إنه من الصعب أن يكون هناك كاتب يوصف بأنه كاتب يميني.. الفنان الخالق لا يمكن أن يكون يمينًا إلا في أواخر حياته وفي هذه الحالة لا يصبح من اليمين الرجعي بل يكون يمينيًا دسماً، لقد حملت الحياة الأدبية عبء الحياة السياسية خلال السنوات الماضية رغم المضايقات التي تعرض لها كتاب اليسار.. ورغم

المضايقات فإن كاتبًا واحداً لم يتخل عن موقفه مثلما حدث مع عدد كبير من كتاب اليسار في العالم كله.. الكاتب يساري بطبعه متحرر بطبعه تقدمي بطبعه مع الشعب وضد الظلم وضد القهر والتخلف ومع إعلاء القيم الإنسانية.

الحرب والمكاتب

- **ألا تعتقد أن الحركة النقدية ظلمتك؟**

- لا أفكر في هذا، وعمومًا لا أفكر في النقد بمعنى النقد المعاصر أبداً وحتى هذا غير مطلوب ولا بد أن أقدر أن الحركة النقدية نفسها كانت مظلومة ومع هذا فقد تأثرت الحركة الفنية بي، وكان تأثرها أكبر وأسرع من الحركة الأدبية، من الفرافير خرج مسرح الشوك في السامر ومسرح تحية كاريوكا السياسي في مصر وهذه حقيقة ومع هذا هناك الآن ثلاثة كتب عنى ستصدر قريبا، كتاب لصبري حافظ وكتاب لفاروق عبد القادر وكتاب لمؤلف لبناني لا أذكر اسمه، حالت أزمة النشر والورق دون صدور هذه الكتب وستصدر قريبًا.

- **هل قرأت بعض الأعمال عن ٦ أكتوبر؟**

- لا.. ورأيي أنه لا يمكن أن تظهر أعمال أدبية عن أكتوبر، أرفض أن يجيء كاتب في القاهرة ويكتب رواية عن الحرب، والأفضل والأشرف لنا نحن سكان القاهرة أن نكتب عن قضايانا هنا بروح أكتوبر العظيم أما الكتابة عن الحرب فلا بد أن يقوم بها أحد الذين عاصروا هذه الحرب هناك فهو أقدر وأكثر فهمًا واستيعابًا منا.

الدكتور فؤاد زكريا

يحاكم العقل العربي

في أوقات الأزمات لا نجد من مفكرينا سوى التراجع، تلك حقيقة، وإن كان الكل لا يتراجع في العادة، هناك من يبقي في مكانه، ولا تزيده الأزمة سوى ثباتًا على موقفه، ربما يتحول الأمر إلى نوع من العناد الداخلي ومن هؤلاء الرجال الأستاذ فؤاد زكريا أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة عين شمس سابقاً، والأستاذ بكلية الآداب بجامعة الكويت حاليا، الرجل يسكن بالقرب مني، وتربطنا صلة عمل تعود إلى سنوات مضت وعندما يبدأ الرفض رحلة التراجع أذهب إليه، فهو يحضر إلى مصر في الصيف من كل عام، يقضي الإجازة فيها ثم يعود من جديد إلى الكويت، ثلاث جلسات قضيتها معه أجرى هذا الحوار وهو يستعد للسفر، كانت لدينا حالة من الفراغ الفكري القادمة تهددنا جمعًا بحالة من التأكل الداخلي، خاصة وأن الفكر مهنة لا تجد حتى الآن من يعترف بها والمفكر مواطن مطلوب القبض عليه حتى يثبت العكس ولأن المحاذير كثيرة في زماننا العجيب هذا فقد اخترت موضوعاً واحداً للحديث عنه؛ أزمة الواقع العربي

الراهن، والاختيار ليس هروبا بأي حالة، ولكنه محاولة منا حتى لا نتوه في الجزئيات فهذه المرحلة مليئة بالجزئيات في كل مكان ولكن ألا يحسن بي تقديم الرجل أولا.

المفكر نفسه ولد

الدكتور فؤاد زكريا في أول ديسمبر سنة ٧٢٩١ في مدينة بورسعيد، وتدرج في التعليم حتى حصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة، في سنة ٦٥٩١ حصل على جائزة الدولة عن دراسة للفيلسوف إسبينوزا. وقالت عنه اللجنة التي قررت منحة الجائزة إنه في أصالة ونضج ودرس مستفيض ورأي مستقل وقدرة على الأخذ والرد وتجديد وابتكار في موضوع دقيق لم يعالج من قبل من اللغة العربية، رسالته للحصول على الدكتوراة كانت حول مشكلة الحقيقة. وقد تولى رئاسة تحرير مجلة الفكر المعاصر، والتى صدرت فترة في مصر في أحد مراحل الإزدهار الفكري النادرة في مصر الحديثة، من كتاباته: له دراسة عن ريتشارد فاجنر. وله دراسة حول نيتشه، ودراسة حول: الفن والمجتمع عبر التاريخ، وترجع كتاب العقل والثورة، وهو الكتاب الذي ألفه

هربرت ماركيز عن هيجل، وقد صدرت من هذا الكتاب ثلاث طبعات حتى الآن طبعة في بيروت واثنتان في القاهرة.

وفي الفترة الأخيرة أصبح مسئولاً عن سلسلة عالم المعرفة التي تصدرها وزارة الإعلام في الكويت.

قصة حزينة أختم بها هذا التقديم للدكتور فؤاد زكريا.

إنه في العام الماضي عاد إلى جامعة عين شمس ليجدد إجازته التي حصل عليها بدون مرتب ارتباطه بمشروع عالم المعرفة في الكويت، ورغم أن الرجل واحد من الأسماء الضخمة والعملاقة، ومن الجباه العالية في الفكر العربي المعاصر، إلا أن الجامعة رفضت تجيد الإجازة، ودفعته إلى أن يقدم استقالته من العمل، مع أن مجرد مجوده قيمة كان يجب الحرص عليها، ولكن من يقرأ ومن يسمع في هذا الزمن العجيب، كان السؤال الأول التقليدي عما يفعله الآن؟

العقل العربي

أحاول أن أجمع الآن، ثم أقرأ ما كتب عن العقل العربي المعاصر، إذ يبدو لي أن كل مفكر في العالم العربي ينبغي أن يقول كلمته في هذا الموضوع الحيوي، على ألا يبدأ من الصفر، يبدأ أولاً بأهم ما قاله الآخرون، حتى

يستطيع أن يضيف جديدًا. أو على الأقل يعالج إسهامات الآخرين من زاوية جديدة، ويبدو لي أن العقل العربي سيظل في حاجة إلى تأمل ذات بنظرة نقدية، بل إن ازدياد التدهور العربي يؤدي إلى المزيد من مراجعة النفس والسعي إلى كشف عيوبها الباطنة، ولذلك فإني أتوقع استمرار تدفق المؤلفات والأبحاث في هذا الموضوع، وأمل أن أكون قادراً على الإسهام بنصيب في هذا الجهد المشترك الذي يضطلع به المفكرون العرب في عصر الأزمة الراهنة.

أما عن الأعمال المترجمة، فقد مرت مرحلة قمت فيها بمجهود غير بسيط في ميدان الترجمة وكان هدفي من ذلك هو أن أستغل قدرتي في هذا الميدان (إذ أنني أعتقد أن الترجمة فن قائم بذاته. وأنني على دراية بأسرار هذا الفن)

لكي أعرف قراء العربية بعدد من النصوص والدراسات الهامة، وقد أسعدني رد فعل القراء على هذه المترجمات، إذا كانوا يقرؤنها كما لو كانت كتبًا مؤلفة بالعربية، وهذه شهادة أعتز بها كل الاعتزاز ومع ذلك فقد بدا لي – بعد أن ترجمت ألوف الصفحات – أن من واجبي تحقيق نوع من التوازن بين جهدي في الترجمة وجهدي في التأليف وهذا ما يبرر

توقفي المؤقت عن الترجمة ولكن هذا التوقف لا يعني على الإطلاق أنني قررت التخلي عن الاشتغال بالترجمة إذ أنني أعتبر الالتزام بأرق المعاني التي عبر عنها المؤلف الأصلي ولذلك فإنني لا بد من أواصل العمل في هذا الميدان قريبًا بعد أن انتهى من بعض المشروعات التأليفية.

العرب والعلم

للدكتور فؤاد زكريا كتاب هام عن التفكير العلمي وقراءته تثير سؤالاً حول موقف العرب المزدوج من العلم فرغم الاستخدام اليومي لمنجزات العلم، فإنهم لا يفكرون بصورة علمية.

قال لي:

الواقع أن استخدام نواتج العلم ومنجزاته كالسيارة والتليفزيون وأجهزة التسجيل، لا يمكن أن يعد في حد ذاته حافزاً للتفكير بالأسلوب العلمي، بل إن إدمان العادات الاستهلالية التي تؤدي بالمرء إلى أن يكدس أحدث الأجهزة التكنولوجية ويغيرها تباعاً، ربما كان عقبة في طريق التفكير العلمي ذلك أن العرب يتعاملون مع هذه الأجهزة من الخارج، ويدخلون مع التكنولوجيا الحديثة بسطحية فيكتفون باقتناء

أحدث نواتجها ويستمتعون بها استمتاعًا لا يخلو من الدهشة والانبهار، ولكن المشكلة هي أنهم لم يشتركوا على الإطلاق في أي جانب من جوانبها في عملية الكشف العلمية التي استغرقت عشرات ومئات السنين واستنفذت جهد الألوف من العلماء والباحثين في المجتمعات الغربية.

فنحن نأخذ نتائج جهد الآخرين جاهزة وهم يدرسون ويبحثون ويفشلون أكثر من مرة فيما قبل كل نجاح واحد ونحن نتفرج وننتظر حتى ينجحوا، ثم نجني ثمار نجاحهم دون أن نحرك ساكناً. ولا أشك أن المعاناة الطويلة التي مرت بها الشعوب الغربية، أدت بها في النهاية إلى بلوغ مستواها الحالي الرفيع وهي وحدها الكفيلة بخلق عادات فكرية مرتكزة على المبادئ العامة المستجدة من التعلم، وهي المبادئ التي تغلغل في عقول أفراد هذه الشعوب بفضل الممارسة الطويلة لأسلوب معين في الحياة وتنظيم الطاقة البشرية واستغلال الوقت المتاح حتى لو لم يكن هؤلاء الأفراد قد ورثوا من العلم أي فرع محدد، فالغربيون قد مروا بالتجربة كاملة منذ لحظات الكشف الأول والتجارب الأولى حتى لحظات التحقق الكامل ولذلك لا يعد التقدم العلمي

والتكنولوجي بالنسبة إليهم مجرد إضافة من الخارج، وإنما أصبح أسلوب في الحياة والفكر متغلغلاً في شخصيتهم ومندمجاً في طبيعتهم، أما في حالتنا نحن فقد اكتفينا باقتناء النواتج النهائية وبالتوقف عند محطة الوصول دون أن نمر بالمرحلة ذاتها، ودون أن نجرب مشقاتها ومسراتها، ومن ثم فإن الاستخدام اليومي لأحدث نواتج العلم لم يغير في عادتنا الفكرية شيئاً، وظلت عقولنا تعاني من الازدواجية المألوفة بين حياة خاصة تنتمي إلى صميم العصر وفكر داخلي ما زالت تعشش فيه أوهام العصور الوسطى وخرافاتها، ومر علينا قطار العلم والتكنولجيا دون أن يغير في داخلنا شيئًا كثيرًا.

الحاكم والمحكوم

في محاولة لتحديد سمات هذه المرحلة في حياة الوطن العربي قال الدكتور فؤاد زكريا: أهم السمات التي تميز المرحلة الراهنة في عمر الوطن العربي هي:

١ - بالنسبة إلى أنظمة الحكم، هناك انفصال حاد بين الحكام والشعوب على مستوى الوطن العربي كله تقريبا، والسمة الأساسية لأنظمة الحكم في المرحلة الراهنة هي أنها حريصة على البقاء في السلطة أكثر مما هي حريصة على

تأدية الوظيفة الأصلية للحكم وهي رعاية مصالح مواطنيها والنهوض بهم، وترتب على هذه السمة الأساسية نتيجة هامة، هي أن البلاد العربية لم تكن في وقت من الأوقات بعيدة عن الديمقراطية بقدر ما هي في المرحلة الحالية ذلك لأن جـــزءاً هاماً من أساليب الأنظمة الحاكمة هدفه المحافظة على الحكم.

- أي أن تحقيق غايتها الكبرى – يكمن فـي إسكات الأصوات المعارضة وإبقاء الشعوب فيما يشبه الغيبوبة التي لا تسمع فيها إلا وجهة نظر الحاكم من خلال أجهزة الإعلام ، وهكذا فعلى الرغم من كل صـيحات الدعايـة المنظمـة والموجهة، وكل ما يتشدق به عن تحقيق مطالـب الشـعوب والحكم الديمقراطي وثورات التحرير والصحيح فالجماهير لا تملك حتى حق المشاركة في توجيهه.

٢ - أما بالنسبة للمحكومين، فإن الفوارق بين النفقـات المختلفة في الشعب الواحد تتزايد على الدوام، ولم تستطع كل تجارب الاشتراكية وتحقيق العدالة الاجتماعيـة أن تحـدث تأثيرا حقيقيًا على مستوى الشعوب العربية.

مما يدل على أن التجارب كانت سطحية، لم يكن يقصد منها أصلا أن تمتد إلى جذور الحياة وتعيد تشـكيلها، ومـن

جهة أخرى فيبدو أن الفترة الطويلة التي انقضت منذ انتهاء عهد الممارسة الديمقراطية النسبية (وهو عهد الأربعينات وأوائل الخمسينات) وتعويد الإنسان العربي على قبول القهر والضغط والتفرقة والحكم الاستثنائي حتى أصبح ينظر إلى هذه الأمور كما لو كنت جزءا من طبيعة الأشياء وسنة من سنن الكون. وهذا في رأيي أخطر تغيير يمكن أن يطرأ على الأمة العربية حتى يهزم الإنسان فيها من الداخل. ذلك الوضع الاجتماعي المحير كان قائماً منذ عهد بعيد وسيظل قائما – على الأرجح – مدة طويلة، ولكن هناك فارقا أساسياً بين وعي الإنسان بهذا الظلم وإدراكه أنه لا يمكن أن يدوم ومقاومته له بالأساليب الإيجابية أو السلبية وبين قبوله واستسلامه له كما لو كان قدراً محكومًا ومصيرًا لا يمكن رده ومقاومته، وأخشى أن أقول، إن حالة الاستسلام هذه هي التي تميز وضع الشعوب العربية في المرحلة الراهنة وهي التي تميز هذه المرحلة عن كافة المراحل السابقة التي كانت فيها هذه الشعوب تعبئ نفسها لمقاومة القهر أو تخزن في وعيها، وعلى الأقل، شعوراً بأن هناك وضعا ظالماً ينبغي أن تعمل على إصلاحه يوماً ما.

الإجابة السابقة تضعنا أمام السؤال التالي مباشرة عن العقل العربي وعودته إلى الخرافة والوهم والغيبيات.

ردا على الدكتور فؤاد زكريا:

أعتقد أن السبب الأساسي لعودة العقل العربي، في الآونة الحالية إلى حالة الخرافة والتمسك بالغيبيات هو سبب سياسي اجتماعي في المحل الأول.

أما السبب السياسي فيكمن في أن أنظمة الحكم العربية تؤمن بأن بقاء الشعوب في حالة الجهالة يساعد على الإمساك بزمامها والسيطرة عليها بسهولة على حين أن تخلصها من هذه الحالة، وخروج العقل إلى النور، يؤدي إلى انتشار روح التمرد على الأوضاع الظالمة فيها، وهكذا نلمس جميعاً أن أجهزة الإعلام التي تخضع لأنظمة الحكم في بدلانا خضوعاً يكاد يكون تماما، تقوم في هذا بدور مزدوج، فهي من جهة تفسح المجال وتفتح الأبواب على مصراعيها لأصحاب الدعوات الغيبية وأنصار الخرافة ومروجي الأساطير وتفرضها على الناس وتضخم صورتهم حتى يتصور الناس في نهاية الأمر أن هؤلاء عمالقة بحق وأن اتجاهاتهم – التي هي في واقع الأمر شديدة التخلف – هي وحدها الاتجاهات

الصحيحة، وهي من جهة أخرى ترفض تمامًا أن تسمح لأي رأي ردايكالي مستنيرا أن يعبر عن نفسه، أو أن يرد على دعاوى الفئة السابقة ويقارعها الحجة بالحجة، وهكذا تكون المعركة بين الطرفين غير متكافئة بل لا تكون هناك معركة على الإطلاق في واقع الأمر، لأن أحد الفريقين حراً طليقاً يصول ويجول كما يشاء، والثاني مكمم الفم مغلول اليد ومع ذلك يقال إن الفريق الأول هو الذي انتصر على الثاني، وأما السبب الاجتماعي فيرجع إلى أن حالة الكبت والقهر التي تعانيها الشعوب العربية لا تدع أمامها أي مهرب من التفكير الخرافي والاحتماء بالغيبيات، فالخرافة تصبح عندئذ ملجأ وملاذاً للشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها، لا تدري مما يحدث حلوها شيئا، ولا تملك أي تحكم في مصيرها ومن المعروف أن الخرافة تزدهر في أوقات الشعور بالعجز واليأس واستحالة الاهتداء إلى مخرج، على أنها تخسر عندما يسود الإحساس بالتفاؤل والقدرة على الإمساك بزمام الأمور، والواقع أن التفكير الخرافي يؤدي لوظيفة هامة في حالة الشعوب التي تمر بأوضاع مماثلة لتلك التي تمر بها الشعوب العربية: إذ يقدم إليها عزاء من نوع خاص، ويحميها من

التفكير المباشر في أوضاعها السيئة ويمنحها أملاً في الخلاص، صحيح أن هذا الأمل كاذب، ولكن هل نملك شيئًا سواه؟

إن التشخيص السليم للمشكلة، بطبيعة الحال هو أن استمرار التفكير الغيبي والخرافي يؤدي إلى الإبقاء على الأوضاع التي يشكو منها الشعب العربي، كما أن هذه الأوضاع تساعد على استمرار هذا النوع من التفكير، إذن حلقة مفرغة ولكن من الواضع أن الخروج منها لن يتم إلا بتغير تلك الأوضاع التي تؤدي حتماً إلى إفراز تفكير لا عقلي، أما الدعوة إلى تغيير تفكير الناس أولا، وبعد ذلك تغيير الظروف والأوضاع، فهي دعوة معكوسة أو مقلوبة، لأن العقول لن تتغير من فراغ، ولا يعاد تشكيلها بقرار أو خطة ترسمها مقدماً، بل إنها لا تبدأ في التغير إلا بعد أن تتبدل الأوضاع التي أضفت عليها قالبها الخاص وتشكلها تشكيلا يتلاءم مع طبيعتها السلبية.

المفكرون العرب

سألته عن المفكرين العرب البارزين في عصرنا الراهن، مثل عبد الله العروي والطيب تزيني وأنور عبد

الملك وسمير أمين، والسؤال لماذا لا يشكلون تيارًا فكريا له ملامحه المميزة؟

نعم - رد الدكتور فؤاد زكريا – يوجد عدد لا ستهان به من المفكرين العرب البارزين الذين نذر البعض منهم حياته للتفكير في أوضاع أمته وتشخيص عللها ورسم طريق الخلاص أمامهم ولكن التأثير العام لهؤلاء المفكرين محدود فهم لم ينجحوا - كما لاحظت في سؤالك – في خلق تيار فكرى عربي واضح المعالم، و في تحويل جانب ملموس من الأمة العربية في اتجاه التحرير الاجتماعي والاستنارة الفكرية، ولم تسفر جهودهم عن إيجاد تيار يماثل ذلك الذي أحدثه فلاسفة فرنسا وأدباءها في القرن الثامن عشر قبل الثورة الفرنسية، أو أدباء روسيا ومفكروها في القرن التاسع عشر قبل الثورة الروسية.

والسبب الرئيسي لظاهرة تضاؤل الفعالية والتأثير هذه، هو الإمكانات الجديدة المتاحة لأجهزة الدولة في الميدان الثقافي والإعلامي، وهي الإمكانات التي تستخدم في محاربة أي نوع معارض من الفكر، وفي التبريرية المنافقة ففي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم تكن الدولة تملك قدرًا

ضئيلاً من القدرات التي تملكها الدولة المعاصرة ومن ثم كان الصراع على المستوى الفكري، يدور بين اتجاهات فكرية ذات إمكانات متقاربة، فكان من الطبيعي أن يكتب الانتصار لتلك الاتجاهات التي تحس بنبض الجماهير، وتعبر بصدق عن آمالها في مستقبل أفضل، أما في الوقت الراهن، وفي البلاد العربية بالذات، فإن الدولة تدخل بكل ثقلها من أجل تغليب فريق وحجب فريق ولم يعد في استطاعة المفكر أن يوصل صوته بوضوح إلى الجماهير العريضة إلا باستخدام بعض وسائل الإعلام وأجهزة نشر الثقافة التي تسيطر الدولة على معظمها.

ومع ذلك فإن المفكرين العرب يخوضوه معركة بطولية، ويتحدون أجهزة الرقابة ووسائل الإعلام الخاضعة للحكام، ويحاولون بشتى الوسائل والسبل أن يوصلوا كلمتهم إلى الجماهير.

فإذا كان تأثيرهم محدوداً، فلا بد أن نذكر الأمية المتفشية في العالم العربي، إنها تحول دون انتشار الكلمة المقروءة بين الغالبية العظمى من الناس.

ومن ناحية أخرى يبدو لي أن الشعوب العربية تمر بحالة من التبلد الذهني تمنعها من التجاوب بحماسة مع أية دعوة فكرية توجه إليها – مهما كان مدى إخلاص هذه الدعوة – فهذه الشعوب إما غنية، وإما فقيرة إلى حد الكفاف، وفي كلتا الحالتين يصعب أن يكون للفكر تأثير لأن الشعوب الغنية لاهية في ثرائها مستمتعة بالحياة الاستهلاكية الباهظة التكاليف، غارقة في الترف المادي إلى ذقونها، أما الشعوب الفقيرة فتلح عليها مطالب الحياة اليومية، وتنشغل بلقمة العيش الضرورية إلى الحد الذي لا يترك لها فرصة الاهتمام بالمسائل الفكرية، ففي كلتا الحالتين – حالة الثراء الشديد والفقر الشديد – تبدو كلمة العقل غريبة على الأذن، وتطرق أبواب صماء، وتنادى فلا يسمح لها الغارقون في الترف ولا الغارقون في البؤس.

الأزمة العربية

يمر الوطن العربي حالياً بأخطر أزمة في تاريخه الحديث – والسؤال عن أبعاد الأزمة – فالأزمة هي المرحلة التي يخرج منها الوضع إما إلى التدهور أو الانفراج.

اتفق معي الدكتور زكريا في ذلك، وأكد أن الأزمة التي يمر بها العرب في الوقت الراهن هي بالفعل أخطر أزمة في تاريخهم الحديث، أبعاد داخلية وخارجية أما الأبعاد فقد تحدثت عنها من قبل، وهي تتمثل في وجود مجموعة لا تحمد عليها أنظمة الحكم، تجمعت كلها في موقف واحد وفي مرحلة حاسمة في تاريخنا، ولكي يسند بعضها بعضاً (مهما اختلفوا في الظاهر) ضد الشعوب العربية، ولكي يحققوا تفاصيل المخطط الذي أراده الأعداء، وأنا لا أعد مجتمع هذه الأنظمة – في الوقت الراهن بالذات – مجرد صدفة بل إنها قطعاً مرسومة، وضعتها تلك التي تستهدف السيطرة على المنطقة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، والدليل على ذلك هو أن تلك البلاد التي لم تكن تعرف معنى الاستقرار في الحكم – والتي كانت الإنقلابات تتعاقب عليها عاماً بعد عام – أصبحت تتمتع بحكم مستقر منذ عشر سنوات، وفي نظري، أن أمريكا والصهيونية تسعى إلى الحصول على أفضل استثمار ممكن لهزيمة الأمة العربية في يونيو ٧٦٩١، ولذلك حافظت على أنظمة الحكم التي كانت

من قبل تتلاعب بها، بعد أن هذه هي التي ستحقق لأعداء العرب أفضل عائد ممكن في هزيمة ٧٦.

ويقودنا هذا إلى الأبعاد الخارجية للأزمة، وهي تمثل فيجانبين رئيسين:

الجانب الأول وهو الانتصارات المتزايدة – في السلم وفي الحرب – الإسرائيل على العرب واستسلام القيادات العربي لرغبات إسرائيل كما لو كانت قوة قاهرة يستحيل مقاومتها وحين أتحدث عن الاستسلام العربي، فأنا لا أعني بذلك توقيع المعاهدات التي تضمن وجود إسرائيل وتحقيق أمنيتها في الاعتراف بها فحسب، بل أعنى أيضاً استسلام من يملكون أسلحة ولا يستخدمونها؛ ومن يتظاهرون بالنضال والكفاح وهو في الواقع سلبيون بصورة كاملة على الصعيد العلمي، الأمة العربية قد أوشكت على تحقيق أهدافها البعيدة المدي وهي أن تنغرس في حضارتها دولة عدوانية نشيطة شديدة الطموح في قلب حضارة منهارة حائرة فتستخدم شعوبها لأغراضها الخاصة، وتتوسع في داخلها كما تشاء، وتعامل سكانها في نهاية الأمر معاملة التابعين الأذلاء الذين يستخدموهم الغزاة مجرد أدوات لتحقيق أطماعهم.

أما الجانب الذي يرتبط بالجانب السابق أو ثق الارتباط فهو سير الأمة العربية في ركاب عدوة العرب المنطقية في المرحلة الراهنة؛ أي الولايات المتحدة الأمريكية. وأنا أعتبر أن من علامات الساعة – بالنسبة إلى الأمة العربية – أن يزداد العرب اقترابًا من أمريكا وانحيازًا لسياستها في نفس الوقت الذي أسفرت فيه أمريكا عن أبشع نواياها إزاء العرب في المرحلة الثانية من حرب ٣٧٩١، فقد دخلت أمريكا هذه الحرب ضدنا صراحة، وباعتراف زعمائنا المنحازين إلى أمريكا وكانت حريصة على ألا تهزم إسرائيل، وعلى أن تظل لإسرائيل اليد العليا في ميدان السلاح، وكانت كل الدماء التي سالت بين أبناء الأمة العربية إدانة تحولت أمريكا في هذه اللحظة بالذات إلى صديقة وحليفة! كيف لا أدري، ولكنه كما قلت من علامات الساعة، ومن الدلائل التي لا تخطئ على أن هناك أمة بأكملها في طريق الانهيار، ولا تبدو أدنى بادرة توحي بأن الأمة ستنشل نفسها من الهوة العميقة التي تقترب منها يوماً بعد يوم.

البديل

• النموذج الأمريكي مرفوض، ولكنها مرحلة تمر بها المنطقة كلها فما هو البديل للنموذج الأمريكي الذي لا يقبله بعض المثقفين التقدميين العرب؟

ويرد على، صاحب الدراسة الهامة «العرب والنموذج الأمريكي».

* أعتقد أنك تقصد، من هذا السؤال، النموذج الأمريكي في الميدان الداخلي أي في الاقتصاد وتنظيم المجتمع وأنا أعتقد أن هذا النموذج هو أبعد النماذج عما يصلح لبلاد العالم الثالث، لو كان في هذا النموذج أي فائدة لأفادت منه البلاد التي هي أقرب إليه، والأشد حرصاً على تطبيقه، ومع ذلك فإنه أخفق إخفاقا شنيعا، في بعض البلاد مثل تركيا وتايلاند وإيران في عهدها السابق ومعظم دول أمريكا اللاتينية. ففي هذه الحالات جميعًا تعمل أنظمة الحكم على تطبيق النموذج الأمريكي في كافة تفاصيله، فتسير على نظام الاقتصاد الحر، وتقلل من تدخل الدول في مجال الخدمات إلى الحد الأدنى، وتترك العلاقات بين أصحاب العمل والعمال تنظيم من خلال صفقات ثنائية، إلى آخر تلك السمات المعروفة التي تميز النمط الأمريكي، ومع ذلك فإن

الأوضاع في هذه الدول جميعًا متردية إلى أقصى حد، والمشاكل بالأمان على حياته ومستقبله وعمله يكاد يكون منعدمًا.

وهذا في رأيي أمر طبيعي لأن النموذج الأمريكي – كما أوضحت في الكتيب الذي نشر لي حول هذا الموضوع – ظهر في ظروف فريدة ويستحيل أن يتكرر حتى في العالم الغربي ذاته. أما في العالم الثالث فإن هذا النموذج يقضي على الكيانات إذا يؤدي إلى تخصيص الموارد من أجل إشباع الرغبات الاستهلاكية التي تزيد هذه البلاد، اعتماداً على الدول المتقدمة صناعياً بدلاً من تكدس هذه الموارد من أجل إيجاد تنمية حقيقية، والشيء الذي تحتاجه دول العالم الثالث هو التخطيط الاجتماعي الشامل للموارد وأواجه الإنفاق بحيث توضع للمجتمع أولويات محدودة يلزم بها الجميع ويتخلي الناس عن وهم الحرية الاقتصادية الذي يؤدي في الواقع إلى ثراء القلة وشقاء الكثرة، مثل هذا النموذج قد يقترب كثيرًا من الاشتراكية، ولكن من واجب كل مجتمع أن يطبقه بالطريقة التي تتلاءم مع ظروفه الخاصة، فالمبدأ العام هو التخطيط العلمي المدروس لموارد المجتمع وطاقاته، أما

التطبيقات فمن الواجب أن يكون فيها مرونة تسمح بمراعاة السياق الخاص الذي سيطبق في التجربة.

والصراع مع العدو الصهيوني

- **النموذج الأمريكي يقودنا إلى العدو الصهيوني سالت عما يقال مؤخراً من أن المشاكل الأساسية في الصراع العربي الإسرائيلي هي مشاكل نفسية وتصدى بعض علماء النفس في مصر للحديث بهذه الطريقة؟**

قال لي الدكتور فؤاد زكريا:

- حتى لو كان الصراع بين العرب وإسرائيل صراعاً نفسياً، فإن هذا لا يغير من واقع الأمر شيئًا ذلك لأن الصراع النفسي يحدث دائماً نتيجة لظروف واقعية وموضوعية هي التي تؤدي إلى الكراهية الشديدة وتأجج مشاعر العدوان ولكن هذه الوجه النفسي للصراع لم يكن في واقع الأمر إلا انعكاسا للجوانب الموضوعية في الصراع بين نظامين يتعارضان أشد التعارض وفلسفتين تقفان على طرفي نقيض.

وعلى ذلك، فمن الممكن أن نسلم جدلاً برأي القائلين إن بيننا وبين الإسرائيليين سراعاً نفسياً حاداً، ولكن هذا لا ينفي على الإطلاق وجود عوامل موضوعية أساسية في هذا الصراع بل إن الجانب النفسي ما هو إلا نتيجة ومظهر خارجي لعوامل أخرى أهم، من المحال أن تكون بيننا وبين الإسرائيليين كراهية لمجرد أننا لا نستلطفهم أو لأن أفكارنا مسبقة خاطئة عنهم، فالتاريخ الطويل للصراع العربي الإسرائيلي والمعروف للكافة بأهداف الخصم وأطماعه والوسائل التي يتبعها من أجل تحقيق هذه الأهداف، كل هذا كفيل بأن يجعل للصراع معه أسسًا محددة، لا تبني على الوهم أو التخيل، لقد تعاملنا معهم طويلاً وعرفنا عن كثب وذقنا مرارة الحرب معهم مرات عديدة، وهذا كله لا يدع أي مجال للاعتقاد بأن الأمر كله خطأ أو سوء تفاهم.

وحقيقة الأمر أن إسرائيل مجتمع توسعي، يوهم نفسه بأن الهدف من هذا التوسع هو الدفاع عن نفسه وتأمين حياته، وهكذا فإن كل قطعة أرض جديدة يضمها أو ينشئ فيها مستوطنة يتم الاستيلاء عليها بحجة الدفاع عن النفس، وتبرر إسرائيل تصرفها أمام العالم بأنها دولة صغيرة مسكينة

تحيط بها دول أكبر تريد الانقضاض عليها ولكن الواقع أن هذا التوسع، بحجة التأمين، يمثل نمطاً فريداً في السلوك الدولي، فلا شك أن الاتحاد السوفيتي سيشعر أنه أكثر أماناً لو استولى على إيران، وأمريكا ستكون أكثر أماناً لو استولت على كوبا، وتركيا ستكون أكثر أماناً لو ضمت إليها قبرص ، ولكن هناك شيء اسمه الشعب الأصلي المقيم في هذه المناطق المطلوبة لتأمين بلدا آخر له كيانه، هذان شيئان لا تعمل إسرائيل لهما حساباً في سعيها المزعوم إلى الأمان ومن هنا كان هناك تعارض أساسي في المصالح بين إسرائيل بتكوينها الراهن وبين العرب، ومثل هذا التعارض لا يمكن اختزاله إلى مجرد مشاعر نفسية، بل إنه لا يحل إلا على مستوى الكفاح الشامل، الذي يعني تعبئة كل الموارد البشرية والاقتصادية والقدرات السياسية من أجل مواجهة العدو والقوى المساندة له في كافة الميادين.

أما الأمور الأخرى فهي مؤقتة، ولا يمكن أن تغير من الطبيعة الإسرائيلية شيئا، فها نحن نرى إسرائيل وقد حصلت على الصلح والسلام، والعلاقات الطبيعية والاعتراف الكامل من أكبر دولة عربية، وهذا مكسب لا يستهان به – كان

المفروض أن يهدئ من مزاجها كثيرًا لو كانت المسألة نفسية بحيث نلمس لها أنماطاً من السلوك تختلف عما ألفنا من قبل، ولكن الواقع أن عدوانية إسرائيل لم تقل ونفسيتها لم تهدأ وسعيها إلى التوسع لم يتوقف، بل يمكن القول إن الاطمئنان الذي حصلت عليه إسرائيل على الجبهة المصرية، قد فتح شهيتها إلى المزيد من التوسع والتشدد في التعامل مع خصومها مما يثبت بوضوح أن إسرائيل نفسها لا تنظر إلى صراعها مع العرب على أنه صراع نفسي على الإطلاق.

فلاسفة أم وكلاء؟

- **كان السؤال الأخير حول من يقولون عن أنفسهم فلاسفة في الوطن العربي، هل هم كذلك؟ أم مجرد حملة توكيلات عن اتجاهات فلسفية في العالم اليوم؟**

- تتوقف الإجابة عن هذا السؤال على المقصود من كلمة فلاسفة، فإن كان المقصود منها مفكرين لديهم القدرة على تنظيم الواقع وكشف الأسس الفكرية التي ترتبط بين ظواهره فمن المؤكد أن لدينا فلاسفة كثيرين بهذا المعنى، أما إذا كان المقصود تشييد

بناءات نظرية مكتملة، أو مذاهب شاملة تعالج كل ما يدخل في نطاق المعرفة البشرية من تطور فكري خالص على نحو ما فعل أرسطو أو هيجل مثلاً،

فإننا لا نعرف بالفعل في بلدنا فلاسفة من هذا النوع، ومعظم من حاولوا أن يعرضوا مذهباً فكرياً ويدافعون عنه في بلادنا هم في واقع الأمر ممثلون لمذهب ظهر في الخارج بصورة مستقلة كالوجودية والماركسية أو الوضعية المنطقية، على إننا لا ينبغي أن ننظر إلى هذا الأمر على أنه يعبر عن نقص في طبيعتنا لأنه من الجائز جداً أن الحاجة إلى المذاهب الفكرية الشاملة غير قائمة في مجتمعنا، وقد ظهرت هذه المذاهب في الغرب سواء في اليونان القديمة أو في أوروبا الحديثة (التي تعتبر من الوجهة الفلسفية امتداداً لليونان القديمة بلا جدال) ظهرت في ظروف معينة لم تتكرر في مجتمعاتنا ولذلك لم تستشعر مجتمعاتنا الحاجة إلى إقامة مذاهب فلسفية تضع ظواهر الطبيعة والإنسان كلها في إطار واحد وتتأملها من منظور واحد، والواقع أن ما ينبغي أن

نأخذه من فلسفات الغرب الشاملة، هو المعنى وليس المضمون، فالوضعية المنطقية تستخدم منهجاً في التحليل الدقيق قد يكون مفيداً فى معالجة كثير من المشكلات التى تستخدم فيها لغة فضفاضة وألفاظاً غير محدودة المعنى ولكنها كمضمون تصل إلى نتائج لا يمكن قبولها، كالاعتقاد بأن مهمة العلم الاجتماعي هي وصف الظواهر بطريقة تقديرية والامتناع عن إصدار أحكام لها أي قدر من العمومية، وبذلك تتحول دراسة المجتمع عندها إلى تحليل للجزئيات وتضع الصورة العامة والعوامل الخلفية التي تتحكم في ظواهره السلبية، هذا مجرد مثل أضربه للعلاقة التي يمكن أن تربطنا بالمذاهب الفلسفية التي تظهر في مجتمعنا غير مجتمعاتنا، وعلى أي حال فأنا أعتقد أن المشاكل الواقعية الملحة التي تعانيها مجتمعاتنا تفرض علينا نوعاً من الفكر الموجه إلى معالجة مشكلات محددة، بدلاً من أن يكون موجهاً إلى معالجة مشكلات كونية شاملة: ويبدو لي أن هذا النوع الأخير من المعالجات

الفكرية الشاملة ينطوي على نوع من الترف الفكري الذي لا نملكه في الوقت الراهن، وعلى أية حال فإن العصر لا يحبذ مثل هذه المذاهب حتى في البلاد التي اعتادتها في عصور ماضية. وإنما تتجه الفلسفة فيه على نحو متزايد إلى التركيز على مشكلات محددة بدلاً من إقحام فسها في كل ما يقع في نطاق الوعي الإنساني.

اعترافات متأخرة

لفتحي غانم

- حتى الآن: لا يوجد ما يدعوني للخروج من مقاعد المتفرجين. الشعب المصري الآن يفرز طبقة جديدة.
- الطبقة الجديدة تريد أن تملك كل شيء أو تحطم.. وهي طبقة القفز بالمظلات.
- لو سادت طبقة رشاد عثمان لعملت حضارتها.
- في ٧٦ هزمت الطبقة الوسطى، وبعد مساومة ٣٧ لم يبق لها أي دور.
- هاجمت في صباى: طه حسين ونجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي.
- هاجمني اليسار لأسباب سياسية وعملوا دعاية ليوسف إدريس وعزلوني.

- كتبت مقالاً ضد إحسان عبد القدوس ونشره وهو رئيس التحرير الجيل السابق في الصحافة مهزوم ومحبط
- نجيب محفوظ لا يعرف المغامرة أبداً.
- محمد التابعي هو محمد ناجي، وهيكل هو يوسف السويفي.
- تعلمت من سكان القرية التحدي الأول في حياتي: وهو الرفض.
- قال لي الليثي عبد الناصر: أخي مات في ٧٦ وليس في ٠٧٩١.
- عملت مع أحمد بهاء الدين وعبد الرحمن الشرقاوي في غرفة واحدة الأن أكتب رواية عن الحب.
- نعم.. مطلوب من عصرنا أن يذهب

إلى القبر. كان

إجراء حديث مع فتحي غانم عملاً صعباً للغاية فهو رجل لا يجيد التعبير عن نفسه سوى بالكتابة وهو رجل غير اجتماعي، ودروبه نحو الآخرين لها طرق خاصة به

وحدة فتحي غانم شحيح الكلمات نادراً ما يتحدث عن نفسه وحياته، ومع هذا كان حديثه معنا مليئًا بالجديد الذي يقوله لأول مرة، وبدأت الحديث معه عن الرواية التي يعمل فيها الآن، ثم تزاحم جو المكان بكلمات كثيرة، وتعالوا نطل على العناوين فقط لذة الجلوس في مقاعد المتفرجين، شعب مصر يفرز الآن طبقة جديدة، وهي طبقة القفز بالمظلات ، وشعارها معروف، إما أن تملك كل شيء أو أن تحطم كل شيء. لو سادت طبقة رشاد عثمان لأفرزت حضارتها وكل الحضارات بدأت بعملية غزو. وما يجرى في مصر الآن غزو طبقة جديدة لها، في ٦٧ هزمن الطبقة الوسطي وبعد مساومة ٣٧ لم يبق لها أي دور. طه حسين، جمال عبد الناصر، نجيب محفوظ، عبد الرحمن الشرقاوي، القصة الكاملة مع اليسار المصري، جيل الصحافة السابق وكيف هزم وتحطم، جيل الصحافة الجديدة وكيف حرمته الظروف من فترة الحضانة الطبيعية، محمد التابعي هو محمد ناجي وهيكل وهو يوسف السويفي في الرجل الذي فقد ظله، نعم، والمطلوب من عصرنا الراهن أن تكون لديه شجاعة الذهاب إلى القبر.

بدأت الحديث بتساؤلات: هلا تخرج من هذا الرجل الصموت، البعيد عن التألق الاجتماعي والدوي الإعلامي – بما يعد – عملاً صحفياً جيداً، وخلال الأسئلة والإجابات كانت في ثنايا الكلمات أكثر من مفاجأة وكانت لديه رغبة في ، الحديث بصراحة وحب صحيح، أنه كان يلعب معنا لعبته المفضلة الشطرنج ، نسأله عن موضوع فيجيب عن آخر ولكن حصار الأسئلة ومراوغات الإجابة أكدت أن الحصيلة وافرة وجيدة أيضاً وفوق كل هذا؛ فالحديث مع كاتب يعد من أهم كتاب الرواية في مصر الآن..

لنقرأ الحديث من أوله

الدخول من باب عصر الإعلام

يكتب فتحي غانم في هذه الرواية الجديدة عن العشق الحب في هذا الزمان الصعب والمقعد ويكتب مقالات أسبوعية بصورة منتظمة ولديه مجموعة جديدة من القصص القصيرة من المفروض أن تصدر قريبًا وهكذا يصبح فتحي غانم من الأدباء القلائل الذين عملوا في الصحافة وكانت لديه القدرة على أن يحمي موهبته من أي يأكلها العمل الصحفي اليومي، بل إنه نجح في تحويل العمل الصحفي اليومي إلى

تجربة يقدمها من خلال أعماله الأدبية التي وصلت إلى حد

الإعجاز. عرفت الجماهير الواسعة فتحي غانم عندما أذاع له

تليفزيون القاهرة روايته الرائعة «زينب والعرش» في مسلسل من ٣٠ حلقة، وعلى الفور، بدأت الناس تهتم به وبإنتاجه الأدبي وكانت المشكلة أن الرجل معظم إنتاجه الأدبي من الصعب العثور عليه بسهولة وكان السؤال الذي يفرض نفسه دائما: من هو فتحي غانم؟

والمحزن في الأمر أن فتحي غانم كاتب معروف تمامًا سواء على مستوى الوطن العربي أو العالم، قال عنه المفكر الإنجليزي ديزموند ستيوارت عندما صدرت روايته الرجل الذي فقد ظله بالإنجليزية: إنه واحد من أهم روائي القرن العشرين كلهم وكتب الناقد الأدبي للصنداي تايمز مقارنة مبهرة بين الرجل الذي فقد ظله ورباعية الإسكندرية للورانس داريل، وعند ما ظهرت روايته زينب والعرش، قال عنه نقاد العالم: إنها من أروع الأعمال في الرواية العربية.

مشكلة فتحي غانم ليست قضية النقد الأدبي الذي تكاسل في حق أدبه ولم يقدمه بالصورة التي تليق به قد يكون

ذلك جزءا من الصورة، ولكن المشكلة أعمق من هذا، إنها قضية غربة الكلمة المكتوبة في زماننا هذا، عصر الفيديو والكاسيت، العصر الذي أصبحت القراءة فيه نوعًا من الموقف والاختيار الواضح، إزاء إغراء الذهاب إلى دور السينما والمسرح والجلوس أمام التليفزيون، إن الكلمة المكتوبة تخوض – في هذا العصر – معاركها الأخيرة، وليس أمامها سوى التراجع إزاء هذا الزحف الإعلامي.

كاتب الليالي الطويلة يتكلم

يكتب فتحي غانم هذه الأيام رواية جديدة عن العشق والمحبة ، ولأن العمل يتخلق بداخله هذه الأيام فسألته عن أوقات الكتابة بالنسبة له، قال لي: أكتب في الليل دائما أبدأ الكتابة في الثانية عشرة وقت انتصاف الليل بالتحديد ولا انتهي منها سوى في السابعة من صباح اليوم التالي، أما النوم فيبدأ من الثامنة صباحا وحتى انتصاف اليوم، أتذكر أنني عندما كنت أكتب روايتي «زينب والعرش» ظللت لمدة سنة كاملة أشهد لحظات ميلاد النهار في مدينة القاهرة كل يوم تقريبًا.

فتحي غانم: من أنت؟

وصلنا إلى السؤال الهام، من أنت؟ قال رداً عليه: أنا محمد فتحي غانم محمد يوسف دياب، قاهري ولدت في أول بلكونة فوق مقهي ريش سنة ٤٢٩١، كان والدي كاتبًا وله أكثر من عمل ما بين تأليف وترجمة، أذكر أنه كان بالقرب من البيت مقهى يقدم أغاني أم كلثوم، وتعلمت، مررت بمراحل التعليم العادية، حتى تخرجت في كلية الحقوق، ثم عملت في إدارة التحقيقات في وزارة المعارف العمومية، كما كانت تسمى في ذلك الوقت.

- **هل عملت مع توفيق الحكيم وأحمد بهاء الدين وعبد الرحمن الشرقاوي في نفس هذه الإدارة؟ -**

نعم ولا، عملت بالفعل في هذه الإدارة مع أحمد بهاء الدين وعبد الرحمن الشرقاوي، وكنا نجلس في غرفة واحدة ولكن توفيق الحكيم كان يرأس هذه الإدارة في فترة سابقة علينا، ولكنه لم يعمل معنا فيها.

- **يقال إن معظم أعمالك الروائية إنما تنطلق من تجارب ذاتية؟ -**

التجربة الذاتية عندما تتحول إلى عمل روائي تصبح معادلة لها، أي إنها لا تتكرر بحذافيرها، العمل

الروائي بالمفهوم الذي أعمل به، هو رحلة أحمل فيها حقيبتي المليئة بذكرياتي وتجاربي وأنطلق لمواجهة قضية ما، هم من الهموم التي تؤرق الإنسان، شيء استكشفه قد يكون مكاناً، أو حادثة معينة، وهنا يحدث الفارق بين الكاتب الذي يريد تلخيص تجربة أو نقل كلمة أو رأي معين للقارئ، وبين الكاتب يخوض التجربة والمغامرة ولا يعرف على وجه التحديد إلى أي حد ينتهي، وفي كثير من الأحيان لا أدرك نهايات أعمالي وعندما ينضج العمل أفاجأ بأحداث لم أكن أتوقعها، وينتهي العمل بصورة لم أكن أتخيلها، أنا لا أضع أي تخطيط مسبق تكفيني المفاجأة أو مواجهة الموقف، رواياتي من أين – مثلا – بدأت من واقعتين، كنت في رحلة إلى الخارج واجهت فيها مجتمعًا جديداً، لم أستطع تبين العلاقات فيها، والثانية أن صديقي جمال كامل يعشق قراءة الرواية البوليسية وقد قلت له: سأكتب لك رواية مثيرة تجعلك تجلس لقراءتها ولا تتركها قبل أن تكملها وقد حكيت هذه الرواية لصديقي

بهجت عثمان، قبل كتابتها، على أنها وقعت بالفعل، وصدقها بهجت ولكني عندما كتبتها إنما كتبت عملاً مختلفاً فقد خضت فيها أيضا رحلتي رواية الرجل الذي فقد ظله، كانت مواجهة مجتمع بداية الستينات، فقد حدث مع بداية تنظيم الصحافة المصرية وتغيير أوضاعها، وما صاحب ذلك من صراعات حول المناصب والتغييرات الحادة في كل مجالاتها، نتيجة قرارات التأمين وقد حدث التزاحم على المناصب القيادية وظهرت طبقة من الناس الجدد تريد السيطرة على القديم، لقد وجدت نفسي في غمار تجربة كنت جزءا منها، وكان لها رد فعل عندي، لماذا هذا التسلق ولماذا هذا التناحر؟ طرحت هذا كله في الرجل الذي فقد ظله في زينب العرش كنت أمام واقعة وليست وقائع، قدمت العناصر والشخصيات الموجودة في عالم الصحافة والسلطة، زينب فيها شيء من الشعر والتاريخ والدها تركي، وأمها فلاحة، كان العقاد يقول : إن المرأة مثل الشجرة ولذلك عندما تخيلت شخصية زينب وضعت فيها

ملامح تاريخية ولكني أؤكد أني لم أصغها كرمز، ولكن كأمرأة من دم ولحم، تعيش وتتعذب، وتحب وتتزوج.

الصحافة والأدب والتوفيق بينهم

- **كيف يوفق فتحي غانم بين العمل الصحفي والأدبي؟ -**

للأسف لا يستطيع الكاتب أن يعيش في مصر من الأدب فقط لا بد له أن يعمل وعمل الصحافة قريب من الأدب وعندما قرأ أحمد بهاء الدين رواياتي في البداية تسائل: ولماذا لا تتفرغ للأدب فقط، ومع هذا فعملي الأدبي مرتبط تماما بعملي الصحفي، لم أكتب في السياسية سوى بعد هزيمة ٧٦٩١، وقد انطلق هذا من الشعور بضرورة أن نعمل جميعا من أجل رفع الروح المعنوية، وسواء كنت روائيًا أم صحفياً، أو في أي وظيفة أخرى من الدنيا، فلا بد من الكتابة بهدف مواجهة الانهيار الشامل الذي حدث، وبعد ذلك، كنت رئيسًا لتحرير روز اليوسف لمدة أربع سنوات ولكني لم أكتب في السياسية مطلقاً، وحتى

عندما أكتب الآن، فأنا لا أكتب في السياسة ولكني أكتب في أفكار وقضايا سياسية.

- **أين تضع نفسك فكرياً؟ يحتار الكثيرون في موقفك السياسي والفكري؟**

- أرفض الانتماء لأي حزب سياسي وقد ووجهت من قبل بضغوط من أصدقاء يساريين، وللأسف، أخذ البعض هذه القضية بطريقة بعيدة عن الإنسان وبمبدأ غريب: من ليس معنا فهو ضدنا ولهذا تجاهلني تمامًا بعض نقاد اليسار، وقالوا عن تصوراتي للأدب، إنها تصورات سوداء. وهناك مقال عنوانه: «فتحي غانم والأدب الأسود» وهو - أرفض الانتماء لأي حزب سياسي وقد وجهت من قبل بضغوط من أصدقاء يساريين، وللأسف، أخذ البعض هذه القضية بطريقة بعيدة عن الإنسان وبمبدأ غريب: من ليس معنا فهو ضدنا ولهذا تجاهلني تمامًا بعض نقاد اليسار، وقالوا عن تصوراتي للأدب، إنها تصورات سوداء. وهناك مقال عنوانه: «فتحي غانم والأدب الأسود» وهو عن تصوري لشعر الشاعر السوداني محمد الفيتوري.

المعارك مع كبار ذلك الزمان

- **كانت لك في هذه الفترة معارك مع كبارها: ما هي القصة؟**

- كنت شاباً وكانوا كباراً وحدث خلاف، أنا مثلاً لا أوافق على ما كان يقول له الدكتور طه حسين، لأنه شبيه بكراسات التصحيح المدرسي، فكتب عن ذلك كان لي رأيى في قصص إحسان عبد القدوس ولا بد أن أذكر هنا أن إحسان عبد القدوس نشر رأيي فيه – وقد كان رئيسا للتحرير – رغم أن الرأي كان ضده، وكتبت نقداً لعبد الرحمن الشرقاوي، ثم جاء وقت عرض على فيه شيئا بالصدفة، أن أكتب مثلا عن عبد الرحمن الخميسي ونعمان عاشور، ويكتبوا عني ولكني كتبت عن قمصان الدم للخميسي وقلت إن فيها خطابة مباشرة، ،إنه إما على الفنان أن يتعامل مع مباشرة مع الفن والأدب، أو أن يكتب موقفاً لمواصفات وأحكام سياسية وبالتالي وقفوا ضدي ولم يتم عمل دعاية لي مثل التي عملت ليوسف إدريس.

- **كيف يستقيم هذا وأنت أحد القيادات الصحفية في الستينات؟ لدرجة أن الرئيس السادات رفض اسمك كرئيس تحرير لصباح الخير لأنك كنت من قيادات التنظيم الطليعي في الستينيات؟**

- دعني أولاً أصحح الوقائع الأخيرة، كان صلاح حافظ هي المطروح لرئاسة تحرير صباح الخير وأنا لرئاسة تحرير روز اليوسف مع عبد العزيز خميس وكانت كل الاتصالات تتم مع الرئيس حسني الذي كان نائبًا للرئيس في ذلك الوقت، وقد اعتذرنا عن المنصبين وأذكر أن صلاح حافظ اتصل بلويس جريس وأبلغه ذلك فوراً.

أما من ناحية العمل السياسي في الستينات، فقد كنت مسئولا ومن القيادات وهذا صحيح تمامًا.

- **لماذا تأخذ موقف المتفرج في الدنيا وحتى في أدبك؟** -

أولاً أشعر أنني اكتب لأنني أحب الرواية والدوافع لي كي أكتب رواية ما أن يكون هناك قدر من التحدي وأهم التحديات التي كانت تواجهني أن يكون

للإنسان مركز في هذا المجتمع، وسلطة يمارسها، وهذا امتحان حقيقي للروائي، وصدقني أنا لا أبحث عن سلطة ما، وقد تحديت نفسي وأنا أكتب «الرجل الذي فقط ظله» وبعد إن انتهيت من كتابتها وعندما طلب مني أن أتولى منصبًا كان اعتراضي هو أنني لا أريد أن أكون تابعاً لأحد أو بوقاً لأحد، وعندما عرضوا على المنصب قلت لهم: سآخذ إذناً من زوجتي، وأقارن بين قدرتي على العمل كإنسان عادي وبين وضعي في منصب إداري أي المرتدين أكبر، وهذا ما يهم البيت الذي تعود مسئوليته لي وحدي.

- **نعود إلى السؤال الذي لم تجب عنه: لماذا تلعب دور المتفرج.**

إذا كنت مصراً على الإجابة، أقول لك نعم وسأظل كذلك لأنه لا يوجد ما يدعوني إلى الخروج من مقاعد المتفرجين، والنزول إلى الملعب، وعمومًا هذا سيفيدني كثيرًا.

- **لماذا لم تخرج الصحافة أجيالاً جديدة؟**

- في أي مجتمع، الأجيال الجديد تمر بفترة حضـانة، أو تدريب مع الأجيال التي سبقتها، الأجيال الحاليـة تمر فعلاً بفترة الحضانة هـذه لأن الجيـل السـابق تعرض لهزائم مستمرة، وحدث له نوع من الإحباط، لقد هزموا أنفسهم، ولم يقدروا على المواجهـة مـع القضايا الأساسية لمصر حتى يصبح لهـا مستقبل واضح، ووصلوا بالبلاد إلى هزيمـة ٧٦ وصـلوا بالبدء إلى الفوضـى التـي انتهـت إليهـا العلاقـات الاجتماعية وما يصاحبها، وما يترتب عليهـا مـن الأزمات الاقتصادية وزيادة النشاط الطفيلي. وهـذا هو الحاصل الآن، ولذلك فإن القيادات الصـحفية لا تستطيع احتضان الأجيال التي جاءت مـن بعـدها، الأجيال الجديدة حرمت من فترة الحضانة.

- **لماذا تبدو بعيداً عن الناس وحتى عن الأدباء؟ إن نجيب محفوظ يلتقي أسبوعياً بالأدباء، ماذا تفعل أنت حتى يعرفك الناس وتعرفهم؟ -**

نجيب محفوظ عندما يلتقي بالأدباء وخاصة الأجيال الشابة منهم، إنما يقوم بعمل جليل له تأثير كبير فـي

الحركة الأدبية ويحقق هذا التواصل المطلوب، وأتمنى أن أفعل هذا يوماً ما.

- **ما رأيك في أدب نجيب محفوظ؟**

- في بداية الخمسينات وكنت أقوم بنقد الأعمال الروائية، قلت إن نجيب محفوظ لديه الكلمة، وهو يصوغها بصورة لفظية، ولكنه لا يعرف المغامرة أبدا، إنه يبدأ بموقف فكري ثم يواصل النسيج المنظم، ولكن الروائي عندي إنسان قرر أن يقوم برحلة فيقوم بتجهيز حقيبته ويسافر، وهو هنا يواجه كل ما يمكن أن يواجه المسافر، ويكتب حتى يصل إلى نهاية العمل الروائي.

اعترافات متأخرة لفتحي غانم:

هذه الشخصيات وأصولها الواقعية.

- **هناك قضية تشغل الناس، ما هي أصول شخصياتك الواقعية؟**

ضحك فتحي وانتظر قبل أن يرد.

- **هل محمد ناجي في (الرجل الذي فقد ظله) هو محمد التابعي؟**

- أولا أنت تكتب رواية وتعرف هذه العملية المعقدة، من الصعب أن يكون هناك شخص في الحياة نجده في العمل الأدبي، وتكون إضافات هنا وحذف هناك ولكني أقول لك في الفترة التي كتبت فيها الرجل الذي فقد ظله كنت اتصل كثيرا بمحمد التابعي وكنت أسهر عنده يوم الخميس من كل أسبوع مع كمال الشناوي وعندما كنت أكتبها اتصل بي التابعي وقال لي: هل تكتب عنا؟ قلت له: لا أبدا. فرد قائلاً محمد حسنين هيكل هو الذي بلغني، وهل صحيح أن هيكل هو يوسف السويفي؟ لقد أخذ هيكل ذلك بدعاباته حين قال لي: تقصد الرجل الذي فقد عقله، وقد ناقش هيكل بنفسه ذلك مع ديزموند ستيورات.

- **أنت لا عب شطرنج هل أثرت اللعبة على طريقة كتابة الرواية، خاصة زينب والعرش؟**

- الذي أثر على في رواية زينب والعرش هو الموضوع نفسه، كنت أريد عمل بانوراما عريضة لعصر بأكمله والكاتب لا يكتب من فراغ، وفي تصوري أن الكاتب عندما يدخل حجرة مكتبة يجلس

معه فيها كل الكتاب الذين كتبوا في نفس الموضوع، أذكر أنني عندما بدأت أكتب زينب والعرش قلت لنفسي أنا أرغب في كتابة رواية أضع فيها الصورة الكاملة للمجتمع وهذا لا يتحقق إلا إذا أخذت حرية الكاتب في القرن التاسع عشر أي أن أجلس وأحكي، كنت أتمني استخدام نفس الحرية التي استخدمها بلزاك، وأستخدمها ديستوفيسكي وهو يكتب الأخوة كرامازوف بالذات.

- **نعود إلى الشطرنج.**

- الشطرنج يعطني الوعي، ويعرفني أصول اللعبة، ولكن أحب إعادة ذلك إلى التحدي وقصته معي، من أول رواية كنت أتحدى التجربة، التي كنت أعيش فيها، في رواية الجبل ذهبت إلى مجتمع بعيد بدائي كانوا كمن يعيش في كهف، ومع ذلك رفضوا أن ينقلهم حسن فتحي إلى مدينة مفتوحة وإلى النور، وتلك أصبحت مشكلة حياتي بعد هذا، وعندما كتبت كنت أحاول معرفة من أين يأتي كل هذا الرفض في «الرجل الذي فقد ظله» كان الصراع الرهيب على

المناصب في «زينب والعرش» كانت القيم التي تنهار في المجتمع، وقد دخلت في هذه المعمعة لكي أراها من الداخل، وفي «الأفيال» كانت رحلة الموت لكل هذا العالم فهي رواية تبدو بالموت.

- **لك رواية لم تنشر بعد في كتاب هي «حكاية تو»؟**

- «حكاية تو» رواية مستقلة صغيرة وهي عن الجيل الجديد وصلته بأبائه وماهية صلته بالقيم التي كانت سائدة، فيها شخص شيوعي، ورجل شرطة، طرفا التناقض الرئيسي في المجتمع وأقدم حكاية: إن الشيوعي يموت في السجن، عندما دخل السجن أقاموا له الحفلة المعروفة حفلة التعذيب ويموت فيها، وقد استفدت من ذلك من حادث شهدي عطية إن الرواية تتطور وينتظر رجل البوليس نهايته في مواجهة ابن الشيوعي، إنه يموت في مواجهة الشاب ولا أعرف إن كان قد مات خوفاً وذعراً أم أن الشاب قد قتله.

- **لماذا يحدث لك توهج فني وأنت تكتب عن الشخصيات المكررة؟**

- هذا السؤال يقودنا إلى قضية صعبة وهي قضية التعبير الفني، التعبير غير السرد. التعبير غير استعراض الأحداث، التعبير لا يتحقق إلا من خلال بناء كامل للعمل، فإذا كانت هذه الرواية تتحقق من ممارسة الكتاب تتكشف لك طبيعة البناء الذي تتحسسه، والبناء ليس تكوينًا واحداً، بل عدة مراكز متنوعة لأنه بناء إنساني أساسًا.

- **ماذا فعلت في ميدان الأدب؟**

- المدرسة التي أحبها في الكتابة، هي تلك التي تخلصت من المحسنات والتشبيهات، عندما أقول مثلاً: كانت الحفلة عظيمة ورائعة هنا. كلمات عظيمة ورائعة لا مبرر لها، من ناحية أخرى، وأنا أحب وأفضل الوصول مباشرة إلى القارئ.

- **ماذا تقرأ الأن؟**

- رواية دون جوان يعود من الحرب، وهكذا تراني في هذه الأيام أسير الغراميات.

- **نصل إلى موقف النقد منك؟ لم هذا الصمت الذي يصل إلى حد التجاهل التام؟**

- لا أعرف بالضبط ولكن هناك رسالة دكتوراه عن القصة المصرية القصيرة في جامعة كمبردج في لندن فيها جزء كبير عني، قدمها الناقد والباحث المصري الدكتور صبري حافظ أقول لك بصراحة أن الكتابات النقدية تعطيني نوعاً من التعرف على النفس من خلال متلق آخر وهو أساس عملية الفن، يقول نيتشه كل الفنون تحتاج إلى متلق وإلا لا تكتمل لأن متلقى الفن هو الناقد الأول، وهو الذي يكمل الدور، مكتوب عنى في صحف العالم حوالي ٠٦ مقالاً. وكتابات الغرب أو أمريكا لا تهمني، المهم هو الناقد المعاصر في بلدي، وهذا التجاهل يشعرني بحالة من الغربة في القيم والمواصفات المطلوبة، للاحتفاء بالعمل الأدبي في مصر، وهل هذا التقييم قائم على انتماء لشلة أو كيان سياسي أو سلطة تمنح وتعطي الجوائز والبلد نفسها.

- **هل تتابع الجديد في الرواية المصرية العربية؟**

- أحاول في الرواية، أقرأ أعمال صبري موسى، وأعمالك أنت، وعبد الله الطوخي، وزينب صادق،

وبالنسبة للأصوات العربية هناك الجديد. أذكر أنني عندما كنت رئيسًا لتحرير روز اليوسف طلبت من الزميل عبد الفتاح رزق السفر إلى المغرب العربي بهدف اكتشاف هذا المكان أدبيًا والعثور الأسماء الجديدة فيه.

- **وما هذا الغرام عندك باسم يوسف؟**

- أشياء كثيرة هي التي وضعت أمامي اسم يوسف وفرض على تكراره إلى أن تتغير الظروف والأحداث قد أغير الاسم.

- **كيف تنظم علاقتك بالواقع المصري الراهن الآن؟**

- اختلاطي مع المجتمع متغير في اليوم الواحد، قد تراني في قهوة بالسيدة زينب ثم في نادي الجزيرة مع الاختلاف الكبير بين من أجالسهم هنا وهناك.

الابداع تلك العملية العظيمة.

- **كيف ومتي تكتب؟ وهل تفكر في السينما والتليفزيون وأنت تكتب؟**

- أولاً لا أضع السينما في ذهني أثناء الكتابة على الإطلاق لا يمكن لأي كاتب أن يضع نفسه أمام

وحش السينما أبداً، أما من ناحية الكتابة، فليس لدي أي تخطيط مسبق للرواية، يحدث أحياناً أن أدون بعض الملاحظات، عبد الهادي النجار مثلاً في «زينب والعرش» كتبت عنه العديد من الملاحظات لم يخرج منها للنور أي شيء، في بعض الأحيان تتعذر على الكتابة، وفي هذه الحالة أمسك بالقلم وأكتب أي شيئ. بسرعة وبقلم رصاص كنت أكتب، يا فتحي يا غانم أنت متعطل عن الكتابة، السيارة فيها عطل وتتطلب التصليح هكذا حتى أدخل في جو الكتابة، ليس لي في البيت مكتب أو مكان محدود لأكتب فيه. أكتب في أي مكان، منضدة في حجرة الجلوس مكتب ابني وأنا أكتب الرواية مرة واحدة وإن حدث وتعطلت عن مواصلة الكتابة ثم عدت لمواصلتها فإني أكتب من جديد وفي الغالب أكتب ابتداء من منتصف الليل، في زينب والعرش قضيت شهوراً وأنا أري الصباح كل يوم فأتوقف عن الكتابة وأنام حتى الظهر.

الطبقة الوسطى وما فعلته بمصر

- **ألا تشعر أن هناك تغيراً جذرياً هذه الأيام في الطبقة الوسطى؟**

- أولاً الطبقة المتوسطة التي خرجت منها قيادات الجيش والقيادات البيروقراطية التي قامت بالمهن المختلفة من طب وهندسة وتعليم هذه الطبقة هزمت بعد ٧٦ بشكل واضح وبعد هزيمتها كان عليها أن تقوم بعمل إنقاذ أخير، هو الذي تحقق في المساومة التي حدثت بعد ٣٧٩١، بعدها لم يبق للطبقة الوسطي أي جهد وأي طاقة ونتيجة هذا نجد النتائج السياسية والاقتصادية التي نعيشها الآن وكذلك العلاقات داخل هذه الطبقة أبناء هذه الطبقة خرجوا إلى الحياة بشعور معين، هو الهروب من هذه السفينة الفارقة، هاجر من هاجر وعمل هناك من وجد فرصة للعمل، وقد خرجت مكان هذه الطبقة طبقة جديدة من الفقر الكامل، وتريد احتلال المكان الفارغ وعلى مستوى فلاح القرية مثلاً: نجد أن الرجل الذي كان صاحب الأرض من قبل، وتركه أولاده وهاجروا، نجده يقول الآن: ابن فلان الذي كان

شحاتاً يركب سيارة وجاء اليوم لكي يأخذ أرضي، لقد سمعت حكاية من شخص كان أبوه عمدة، وكان هناك واحد فقير، أصبح الآن ثريًا ليس لديه هم سوى شراء منزل العمدة ومهما كان ثمن المنزل، بالرغم من أن المنزل لم يكن مغرياً، إذن الطبقة الوسطى التي كنا نعرفها انهزمت، ونحن الآن نشهد عملية تغير لها، وإحلال وتبديل الشعب المصري يفرز الآن طبقة متوسطه جديدة تختلف عن الطبقة الوسطى القديمة وهي طبقة لم تتدرب على ذلك، فهي طبقة القفز بالمظلات، وعمومًا كل الحضارات تبدأ بنوع من هذه الغزوات، ثم تبدأ الحضارة بعد ذلك، إن ذلك نجده في كل حضارة.

- **هل يعني هذا أن طبقة رشاد عثمان لو سادت، كانت ستقيم الحضارة؟**

- نعم، لو سادت طبقة رشاد عثمان كانت ستقيم حضارتها، لو تركنا جانبًا التقييم الأخلاقي وتحدثنا عن الرغبة في الوجود وفي الحياة هذه الطبقة عندها رغبة قوية في الحياة وهي كطفل رضيع يريد

السيطرة على كل شيء وموقفها واضح، وغما أن تمتلك كل شيء أو أن تحطمه وبعد هذه المرحلة تستعد وتقوى وهذه الطبقة التي لم تستوعب درس محمد على فقد كان محمد على من أشد المعجبين بنابليون وحاول أن يفعل شيئا فضربوه في نافارين، هذا الدرس كان يجب استيعابه.

- **هل يعني ذلك أن محمد على كان البروفة الأولى لعبد الناصر؟**

- أنا أذكر بعد وفاة عبد الناصر أنني كنت في الأسكندرية وقابلت الليثي عبد الناصر، فقال لي: أخي عبد الناصر مات في ٧٦ وليس في ٠٧٩١.

- **ونعود إلى حركة الشعب المصري الآن؟**

- حركة الشعب المصري الآن هي محاولة إحلال، الطبقة الجديدة تقدمت الصفوف واحتلت مكانها وأصبح لها النفوذ داخل المجتمع، والطبقة القديمة التي كان يتشكل منها النفوذ والدور الأساسي في المجتمع، هذه الطبقة هربت من مصر، هاجر أبناؤها

فروا من البلاد، وفي نفس الوقت فإن الطبقة الجديدة تحتل هذا المكان بقوة وعنف وغشم.

يوليو.. ومقبرة الأفيال: لم؟

قلت لفتحي غانم:

- **هذا يضعني مباشرة أمام السؤال التالي: هل هذا ما قصدته في روايتك مقبرة الأفيال؟ هل قصدت أن عصر يوليو كله لم يعد له سوى الذهاب إلى القبر، تمامًا كما تفعل الأفيال عندما ينتهي دورها في الحياة؟**

اسمع ، الحياة الحقيقية هي الوجه الآخر للموت، الأمان يقتل الحياة وهذا معنى يتكرر عندنا باستمرار ، إن قدرة الإنسان على أن يتصدى للأخطار – بالتحديد أخطار الموت – هي التي تصنع حياته. إنه الوجه الآخر من العمل. في رواية «الأفيال» أخذت معظم الأبطال جميعًا ونذهب إلى مكان مجهول في غابات إفريقيا.

- إن بطل الرواية يبدأ بالموت، إن الأفيال كلها رحلة الموت لمن ساروا في الثلاثين سنة الماضية.

- **قلت له ولكن المشكلة ليست في الطبقة الوسطى التي هزمت كما تقول ولكن في البديل الذي يتقدم الصفوف الآن، إن القيم والأخلاق السائدة هي قيم الطبقة السائدة، وتلك هي مشكلة مصر الآن وفي المستقبل..**

تركت فتحي غانم ونزلت من بيته، الذي يطل على نيل القاهرة في حي العجوزة الهادئ، نزلت من الدور السابع، خرجت من بيته وفي ذهني تتردد جملة قالتها الدكتورة لطيفة الزيات.

ذات يوم قالت: إن فتحي غانم هو شهيد النقد المصري في الـ ٣٠ سنة الماضية، في خاطري يدور ما قاله الدكتور صبري حافظ عنه في رسالة الدكتوراة التي قدمها إلى جامعة أكسفورد، قال: أهمية قصص فتحي غانم أنها تقدم أساليب جديدة في التعامل مع الزمن المعاصر، إن قصصه قدمت العديد من التجارب وقدمت مجموعة فنية كاملة من الابتكارات في التعبير عن نغمات جديدة.

الدكتور محمد مصطفى

أعطى ابن إياس ٤٥ سنة من عمره

ويتساءل: متى تستعيد مصر أعظم مؤرخيها؟

يصدر قريباً، في الأسواق الطبعة الثانية من الجزء الأول ، السفر الضخم العظيم «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس، فصدور هذه الطبعة أحد الأحداث الثقافية الهامة والعظيمة والتي لا تتكرر كثيرا، فكتاب ابن إياس – الذي صدر من قبل – في طبعة واحدة – من ستة مجلدات طبعت في القاهرة عند عيس البابي الحلبي، يعد من أكثر الكتب التي ترصد فترة هامة في تاريخ مصر كله وهي فترة الاضطراب الأخير في حياة المماليك، والتى انتهت باحتلال العثماني لمصر، وكتاب ابن إياس هو الكتاب التاريخي الوحيد النابض بروح الواقع، وحضوره وحيويتيه، وهو الوحيد الذي حاول أن يرصد حركة الناس العاديين في الشوارع والبيوت والأسواق، وكتبها ابن إياس بروح قريبة من الفن بدائع الزهور، يقع في ثلاثة آلاف من القطع الكبيرة، ومؤلفه هو محمد بن أحمد بن إياس المصري الحنفي، وهو أول كاتب في تاريخ مصر، وربما العالم يهتدي

إلى ضرورة أن يتفرغ الكاتب للكتابة وحدها، لم يكن من الحكام ولا التجار، ولم يكن من الذين يعملون في ديوان الحكومة والسلطان، اعتصم بالقلم، واحتمى بالأوراق، ومن أرضية المراقب راح يرصد عصره كله، وناسه وأهله، وعندما جلس ليكتب الحوادث العجيبة والوقائع الغريبة لهذا العصر، لم يكن له من هدف سوى تثبيت لحظات ذلك العصر في وجه النسيان ولكي تبقى اللحظات الهاربة من ذاكرة البشرية ولا تفنى أبداً.

ابن إياس يتكلم

(اليوم أشيعت هذه الكاينة العظيمة، التي طمت وعمت، وزلزلت لها الأقطار، وما ذاك ألا أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرود من عند الأمير علان، الدودار الثاني، أحد الأمراء المقدمين فذكر أن السلطان كان يكذب في أمر سليم شاه بن عثمان إلى أن حضر مغلباي داودار سكيم وهو في حال النحس بزمط أقرع على رأسه، وهو لا بس كبر عتيق، وراكب على أكديش هزيل، وقد نهب بركه، وأخذت خيوله..

وقماشه، وأخيرا أن ابن عثمان أبي من الصلح، وقال له: قل لأستاذك يلاقيني عند مرج دابق).

هذا ما يقوله ابن إياس عن الاحتلال العثماني لمصر ويصفح ويحكيه من واقع المعاصرة والمعايشة.

ويصفه ويحكيه من واقع المعاصرة والمعايشة.

يقول عن الأشرف قنصوه الغوري في المعركة: وطق رأسه فرخ حمير، وهو ينادي عساكره يا أغوات يا أمراء هذاوقت المروءة.

ويصل ابن إياس إلى النهاية، ويقول معلقاً على الاحتلال الذي جرى: (لم يقع لمصر من قبل هذه الكاينة العظمى والحادثة المهولة)

هذا ما يقوله ابن إياس، في كتابه الهام والخطير، الطبعة التي تصدر، يعود الفضل في إصدارها إلى قرار اتخذه صلاح عبد الصبور، منذ عامين بصدورها والبروفة الأخيرة للجزء الأول روجعت بصورة نهائية والكل في انتظارها.

غير أن الفضل الأساسي في تعريف أجيال هذا العصر على ابن إياس إنما يعود إلى شخص أهملناه طويلاً، إنه

الأستاذ الدكتور محمد مصطفى وهو الرجل الذي اكتشف ابن إياس وقدمه لنا جميعاً، ولولاه ولولا الجهد الذي قام به لظل ابن إياس مجهولاً لنا جميعًا.

أعرف أن هناك طبعة صدرت في أوائل هذا القرن – من مطبعة بولاق - ولكنها كانت طبعة صغيرة ومحدودة وصدرت عن بعض المخطوطات القليلة والنادرة في مصر، أما الدكتور محمد مصطفى فقد تمكن من العثور على عدد كبير من المخطوطات الموجودة في عواصم عديدة من العالم اليوم وإصدار بالفعل النص الكامل لهذا الكتاب الهام.

والدكتور محمد مصطفى، اسمه بالكامل محمد مصطفى العجمي؛ وهو نسبة إلى حي العجمي في الأسكندرية؛ الذي يحمل اسمه، والرجل يعيش هذه الأيام في شارع السوق بحي المعادي وتعيش معه زوجته الألمانية الأصل، وابنتاه، أما ابنته الثالثة فقد تزوجت وعاشت مع زوجها وهو يعاني من هم واحد في عينيه، فقد ضعف بصره بصورة رهيبة، بعد نصف قرن قضاه من عمره وهو يجرى وراء المخطوطات الخاصة، بابن إياس في بعض عواصم العالم، ليال بأكملها قضاها وهو يحاول استنطاق الأوراق

المكتوبة بخط ابن إياس، لقد أجرى أكثر من عملية في عينيه وهو الآن ينتظر العملية الحاسمة والخطيرة والتي قد تعيد له، قليلاً من بصيص الضوء، بعد سنوات الجرى والبحث وراء ابن إياس، الجزء الأهم في الكتاب أنه يغطي ثلاثين عاماً، من أهم سنوات التحول من حكم المماليك إلى بداية الاحتلال العثماني لمصر.. إنه يرصد تاريخ مصر منذ السنة الأولى للهجرة وحتى آخر سنة ٨٢٩ هـ.

الدكتور محمد مصطفى يتحدث

المفاجأة الحقيقية التي قالها الدكتور محمد مصطفى، عندما قال لي ببساطته النادرة: ما نشر لي من الكتاب ليس كاملاً. أعتقد أن هناك الجزء الأول من الكتاب لم أعثر عليه بعد، وأن الجزء الأخير من الكتاب قد ضاع، وأملى العثور على هذين الجزئين في يوم ما حتى يكون الكتاب كاملاً بهذه الصورة؛ وإن كان يتصور، أن هذين الجزئين قد فقدوا، بعد كتابتهما، وإنه سيكون من المستحيل العثور على هذين الجزئين، يعتقد الدكتور محمد مصطفى أن الأول يؤرخ للسنوات السابقة عليه، والجزء الأخير، من الكتاب، يؤرخ لسنوات الإحتلال العثماني لمصر ما بعد سنة ٨٢٩ هـ.

ذهبت للدكتور محمد مصطفى لكي يتكلم عن نفسه وتجربته مع كتاب إبن إياس. ولكنه فضل الحديث عن قضية عمره كلها؛ عن ابن إياس. يقول لي:

اسمه بالكامل: أبو البركات، ناصر الدين، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري وهو مؤرخ مصري سبقه المقريزي والسيوطي وابن تغري بردي. ولكن ابن إياس هو المؤرخ المصري الوحيد، الذي عاش في العصر الأخير للمماليك في مصر، وعاش السنوات الأولى بعد الفتح العثماني، وعاصر الفتح نفسه، وإن كان لا يعرف حتى الآن، كم عدد السنوات التي عاشها بالضبط.

في تصوري؛ إن جزءا من الجزئين الضائعين قد أخذه العثمانيون معهم من مصر، وخاصة وأنه لم يكن يرتاح العثمانيين وكان يشكو منهم ويسبب فيهم وكان يتعامل معهم باعتبارهم من الغزاة والمحتلين، وكتابه يقدم تاريخ مصر والبلدان الأخرى المجاورة لها، وقد وجدت مخطوطات هذا الكتاب في اسطمبول وباريس ولينجراد في الاتحاد السوفيتي بعد رحلة بحث عنها استغرقت من عمري خمسين سنة.. بالتمام والكمال.

- **ما هو الفرق بين الطبعة التي أصدرتها والطبعة التي أصدرتها مطبعة بولاق؟**

-بدون الدخول في التفصيلات يكفي أن أقول لك: إن الجزء الثاني من بدائع الزهور في طبعة بولاق يقف في ٩٧ صفحة وإن نفس هذا الجزء يقع في ٠٠٥ صفحة في الطبعة التي أصدرتها.

معلومات تاريخية

تقول أوراق تاريخ كتاب ابن إياس والدكتور محمد مصطفى أنه في عام ٨٢٩١ قام الدكتور محمد مصطفى بالاشتراك مع جمعية المستشرقين الألمان بطبع الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الكتاب، ولكن حدث خلال الحرب العالمية الثانية أن احترقت كل نسخ الكتاب الموجودة في مخازن جمعية المستشرقين الألمان في مدينة ليبزج وفي عام ٥٥٩١ اقترح الدكتور باول كاله المستشرق الألماني المعروف طبع الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب، وكلف الدكتور محمد مصطفى بإعداد الكتاب وتحقيقه مع كتابه مقدمة وافية له وإعداد الحواشي والفهارس المختصة به.

وقد بدأ محمد مصطفى بنشر الجزء الرابع من الكتاب، ويشمل فترة لم تنشر من قبل أبداً وساقطة من طبعة بولاق ثم نشر الجزء الخامس الذي يسجل فترات الغزو العثماني لمصر، وهو أهم أجزاء هذا الكتاب ثم عاد لينشر الجزء الثالث من الكتاب حيث يبدأ ابن إياس في تدوين ما عاصره بنفسه من الأحداث، وآخر جزء من الكتاب صدر سنة ٥٧٩١ ومن يومها والكل ينتظر صدور هذه الملحمة النادرة من تاريخ مصر بصورة كاملة.

فصول الحكاية

يقول الدكتور محمد مصطفى عن قصته مع ابن إياس:
كنت أدرس في جامعة بون في ألمانيا الاتحادية، ثم بدأت في تدريس التاريخ الإسلامي واللغة العربي في معهد الدراسات الشرقية وقد عملت فترة من الوقت في دراسة خيال الظل لأنني منذ بدايتي الأولى أهوى الفنون وأهوى التاريخ في نفس الوقت، وفي تصوري أن من يريد معرفة التاريخ الإسلامي لا بد وأن يعرف الفنون أيضاً، وفي مكتبات أوروبا وجدت نسخ من خطوط كتاب ابن إياس واكتشفت أنها نسخة من طبيعة بولاق التي صدرت من كتاب ابن إياس.

الجزء الرابع وجدته في مكتبة لينجراد والخامس وجدته في اسطمبول وهو جزء هام لأنه يغطى عصر الأشراف قنصوه الغورى، وعصر الغوري كان من العصور الهامة في تاريخ الفنون في مصر لأن الأشراف قنصوه كان يعرف العديد من اللغات وكان فنانًا وكان يهتم بالعديد من الفنون وكان يشجع الفنانين، ومن شدة إعجابي به ألقيت عنه محاضرة في المجتمع العلمي المصري الذي أنا عضو فيه، كانت هذه المحاضرة عنوانها التصوير في مصر في أوائل عصر المماليك الجراكسة، وهذا الفن معروف لدي العديد من العلماء.

- **من أنت؟**

-ولدت في مدينة الأسكندرية وينتمي نسبي إلى سيدي العجمي، في ديسمبر سنة ٣٠٩١ حصلت على البكالوريا من الأسكندرية ثم سافرت إلى ألمانيا وأكملت تعليمي فيها، رسالة الدكتوراة مكتوبة باللغة الألمانية ولم تترجم حتى الآن إلى اللغة العربية وكان موضوعها «الفتح العثماني لمصر» عملت في التدريس في معهد الدراسات الشرقية، وعدت إلى

مصر سنة ٦٣٩١ حيث عملت في المتحف الإسلامي، وبدأت من منصب أمين مساعد ثم أمين، ومنذ سنة ٢٥٩١ عملت مديرًا للمتحف وأنا أول مصري يشغل هذا المنصب، في سنة ٣٦٩١ أحلت إلى المعاش ثم عملت في ليبيا في الفترة من ٥٦٩١ إلى سنة ٨٦٩١ كنت خبير آثار وقد عملت حفائر آثار في مدينة سلطا

وقد عثرت هناك على بعض الآثار الإسلامية.. ووجدت آثار دار لسك النقود كانت تابعة لمصر هناك ووجدت بعض العملات التي لا توجد نسخ منها سوى في متحف اللوفر في باريس. في سنة ٤٧٨١ حصلت على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى من ألمانيا الغربية وأنا أول مصري يحصل على هذا الوسام، لعبت دوراً في تطوير المتحف الإسلامي والدليل الوحيد الموجود لهذا المتحف من إعدادي أنا، سواء المطبوع باللغة العربية أو الإنجليزية، وقد توليت تدريس الفنون الإسلامية والآثار الإسلامية في كل جامعات مصر.

- **وأعمالك الأخرى؟**

-حققت كتابًا تاريخيًا آخر وأصدرته ولم تصدر له طبعة من قبل هو كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لابن طولون وهو يرصد تاريخ الشام في نفس الفترة التي يرصدها ابن إياس في مصر، لي دراسة منشورة باللغة العربية سنة ٣٥٩١ حول سجاجيد الصلاة ودراسة الوحدة في الفن الإسلامي وهو صادر بالعربية والإنجليزية في وقت واحد، حالياً أنا أمين الصندوق وأمين المكتبة في المجمع العلمي المصري وعضو شرف جمعية المستشرقين الألمان.

قصتي مع ابن إياس

-منذ سنة ٨٢٩١ وأنا أعيش مع ابن إياس، ٤٥ سنة قضيتها معه، ولدي يقين أن هناك أجزاء أخرى ضائعة من ابن إياس لأن ابن إياس من المستحيل أن يقطع الحديث هكذا مرة واحدة لقد حققت ٠٦ ألف ورقة بخط ابن إياس أخرجت منها هذه الأجزاء، أعمل حالياً في الفهارس، ومن المفروض أن يصدر كتاب ابن إياس في ٦ أجزاء لدي الآن أربعة أجزاء عبارة عن فهارس، فهرس أعلام عبارة عن تراجع

لكل الأعلام التي ورد اسمها في الكتاب، الفهرس الثاني عبارة عن الوظائف التي وجدت في هذا العصر وتسلسلها وأنواعها وكذلك الأعمال الحرة التي عاصرت ابن إياس والفهرس الثالث عن الأماكن والبلدان والرابع عن المصطلحات اللغوية.

- **هل يمكن مقارنة ابن إياس مع باق المؤرخين؟**

-من ناحية عبد الرحمن الجبرتي لا أستطيع الحديث عنه لأنه أرخ لفترة من تاريخ مصر الحديث لا تقع ضمن تخصصي، إن المقريزي فقط تولى وظائف كثيرة في الدولة ومشاغله كانت كثيرة وتفرغه من أجل الكتابة فقط قليل وأن كان كتابه عن الخطط هام جداً في العمارة الإسلامية، ابن إياس كان جده أمير سلاح وهذا مركز كبير في زمانه وكان أخوه يعمل في القلعة في الزرد خانات وهو مكان تخزين الأسلحة
في مكان القلعة وكان مصدراً عظيماً للمعلومات لابن إياس، لم يكن يعاني من مطالب الحياة اليومية، لأنه كان عنده إقطاع عن أبيه وكان يعيش منه، والذي يقدمه ابن إياس في كتابه عبارة عن مجرد مادة خام،

أستغلها كثير من الدارسين والباحثين لأن هذا العصر كان مجهولاً، وقد قدمت عن ابن إياس رسالة دكتوراة في جامعة الإسكندرية وعملت عنه حلقة دراسية بالتعاون ما بين وزارة الثقافة المصرية والجمعية المصرية للدراسات التاريخية وللأسف الشديد لم أحضرها لأني لم أكن موجوداً وقد اعتبرتها تكريمًا لابن إياس.

• ماذا تفعل الآن؟

-أراجع أجزاء الفهارس بصورة أخيرة وأتمنى أن يكون هناك شخص آخر من الجيل الجديد من الباحثين تكون لديه القدرة والرغبة والإمكانيات والاستعداد النفسي والبشري والمادي لكي يكمل هذه المرحلة التي بدأتها باحثاً عن الأجزاء الناقصة من ابن إياس، لأنه في المتحف التركي لا يزال الكثير من الكنوز وهذا المتحف اسمه «توب كابي سراي» وهم هناك يقدمون أكبر قدر من الخدمة لمن يلجأ إليهم طالباً المعونة العلمية.

تبقى قضية أجزاء الفهارس الأربعة، هيئة الكتاب لم تتعاقد معي على إصدارها مع أجزاء الكتاب الستة التي ستصدر من الهيئة بالطبع أتمنى صدور الأجزاء العشرة من مكان واحد وفي حالة عدم تقدم الهيئة بالعرض ستصدر القواميس والفهارس من مكان آخر، لقد بدأت مناقشات هذا الكتاب كاملة مع هيئة الكتاب في فترة تولي الدكتور الشنقيطي الأمور، ولم يتم إصدار القرار سوى في فترة تولي صلاح عبد الصبور – يرحمه الله – ولا أعرف متى يصدر الكتاب كاملاً فهم لديهم نسخة كاملة - وهناك بطء شديد في اتخاذ القرار في تحريك الأمور.

هوايتي جزء من عملي، هوايتي هي التصوير، قد صورت ثلاثة آلاف صورة ملونة للآثار والمتاحف الإسلامية، خاصة المتاحف في كافة أنحاء عالم اليوم وهذه الهواية كما ترى، إنما تخدم عملي فعلاً.

الحزن يأتي في النهاية

يعيش الدكتور محمد مصطفى في بيت مسكون بابن إياس وتاريخ مصر الإسلامي.. أرفف البيت، تغطيها الكتب حتى صورة والده المعلقة في مدخل البيت، خليل إلى أنها

صورة لابن إياس نفسه، تعيش معه ابنته منى، وهى أستاذة في كلية التربية الفنية بجامعة حلوان، والكتاب الذي ألفة من أجل الحصول على درجة أستاذ كان عن الفن الإسلامي، وابنته الأخرى خديجة وهى تعمل معه يومياً في تحقيق الفهارس علاوة على عملها اليومي في المركز القومي للفنون التشكيلية، أما نادية فقد درست الاقتصاد ودراستها العليا في التجارة وابنه الوحيد أحمد يعمل في مكتبة جامعة فان كوفر في كندا.

هذه هي المرة الأولى التي تطرق الصحافة أبواب بيت الرجل، بعد هذا العمر الطويل اهتم الناس به أخيراً هكذا قال الرجل، وكتاب ابن إياس أصدرته سبع هيئات دولية لا توجد من بينها هيئة واحدة مصرية، والاهتمام المصري به جاء بعد هذا تماما، أليس ذلك مؤسفاً ومحزنًا ولم تفكر مصر أبداً في تكريم هذا الرجل، فأسماء الحاصلين على الأوسمة والناشين والذين يحملون اسم الشوامخ وطوابير من حصلوا على شهادات الدكتوراه الفخرية كافة هذه الأسماء تخلو من اسم الدكتور محمد مصطفى، في نفس الوقت الذي ستهديه ألمانيا الغربية وهي دولة أجنبية أرفع وسام فيها مع أنه يبحث

في تاريخ مصر واسم مصر وآثار مصر الإسلامية!! أليس ذلك محزنًا لحد الرغبة في البكاء! كم أهدرت مصر من الطاقات والأسماء المبدعة والخلاقة، إن الرجل يبحث مع هيئة الكتاب نشر كتاب عمره منذ أيام الدكتور الشنقيطي واليوم تولى أمور الهيئة ثالث رئيس لها وكتابه في المطبعة ونحن نطلب من كل مصري مساعدة هذا العاشق العظيم لمصر ونشر كتابه، لأنني أخشى أن يجرى ورائه الآن ناشر أجنبي.

نزار في مرحلة ما بعد بلقيس أنا برئ من دم كل النساء

- أكتب الآن كتابًا عن بلقيس لأنني في القصيدة لم أقل كل شيء.
- موقفي من المرأة لم يتضح بما فيه الكفاية..
- أكتب الآن لأتحدى الموت.
- بلقيس كانت امرأة استثنائية.
- لست شهريار القصيدة العربية.
- قطعت علاقتي بالمرأة الدمية والمرأة الجارية.. منذ زمن طويل.

لكل شاعر مصدر إلهام، بلقيس كانت نساء العالم بالنسبة للشاعر (نزار قباني) الآن وبعد أن ذهبت بلقيس أصبح الشاعر يعيش مرحلة ما بعد الإلهام، ما بعد بلقيس في حياتيا، كانت حروف قصيدته واليوم بعد ذهابها، في ذلك الانفجار المروع في بيروت، أصبحت هي كل قصائده وسوف يذكر تاريخ الشعر العربي الحديث أن بلقيس كانت أهم امرأة في حياة نزار.

- **كيف يعيش نزار مرحلة ما بعد بلقيس؟ وما هي خططه الشخصية والشعرية القادمة؟**

قمت برحلة غوص في أعماق الشاعر الحزين، خلال لقاء مطول على مدى ٣ جلسات لمحاولة معرفة الإجابة على أهم سؤال في حياة نزار: لماذا ذهبت بلقيس؟

جراحة ناجحة في القلب

توقف نزار قباني عن استكمال ديوانه الجديد بلقيس لفترة قصيرة واضطرارية، حيث أجرى جراحة دقيقة في القلب في إحدى مستشفيات الولايات المتحدة، تمت الجراحة بنجاح، وعاد نزار إلى القاهرة ليضع كل مشاعر وخواطر الحب لزوجته الراحلة في ديوانه الجديد الذي يضم كل المشاعر والأفكار والانتقادات لكل ما يرفضه في حياتنا

العربية. قابلت نزار قباني في الغرفة رقم ٥٣٦ بفندق النيل هيلتون، الغرفة تطل على النيل المصري، ذلك المسافر من

الزمان إلى الأبد، كان النيل يبدو متعبًا شاحباً. وقد هجمت عليه شيخوخة مبكرة أتت قبل الأوان، في الحجرة، سرير مزدوج وشجرة زرع ليست صناعية وعلى الحائط لوحات من الفن الشعبي المصري، لوحة العروس، ومنظر للنيل، على المكتب ورق أصفر اللون مسطر، وقلم لون حبره أسود

دخلت عليه وهو يكتب أحد مقالاته، وكان في الغرفة عدد ضخم من المجلات والجرائد العربية، على السرير بيجاما لونها أحمر مثل الدم وفيها خط أزرق. قطع الحديث أكثر من اتصال تليفوني، معجبات ومرحبات يتكلمن بأسمائهن وباسم مصر في بعض الأحيان.

- **قبل أن نبدأ**

كان نزار قد وصل إلى مصر، وقبل وصوله، تردد أنه أرسل لبعض أصدقائه برغبته في الحضور ورغبته في شراء شقة يعيش فيها بشرط وحيد.

أن تطل هذه الشقة على النيل، كان يحلم أن تكون الشقة في المعادي تلك الضاحية الهادئة ولكن بسبب ظروف تعليم أولاده في مدارس فرنسية، قرر أن يكون البحث في حي الزمالك، وهو أيضاً يطل على نيل مصر.

وصل نزار قباني إلى مصر الشهر قبل الماضي، ورحل عنها، بعد أن قرر الحياة فيها بصورة نهائية، سافر ليحضر أولاده، وليرتب أموره وليذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكم هاجم سياستها من قبل ولكنها ترحب به رغم ذلك وسيعود إلى مصر بعد ذلك.

قابله في المطار الدكتور يوسف إدريس وفتحت لـه صالة كبار الزوار في المطار، وفي المطار، كانـت هنـاك مذيعة تسأله وجهاز التسجيل بينها وبينه:

- **لماذا عدت إلى مصر؟**

قال لها بتدفقه المعهود:

-لا يسأل العائد إلى بيته عن السبب في العودة أبدا. لقد عدت إلى بيتي ولا أتصور أن يكون هناك سبب لذلك.

من المطار ذهب مباشرة إلى صديقه الحـاج محمـد مدبولي.. صافحه وعانقه ومسح الغربة في أحضـانه كـان الحاج محمد مدبولي يقف في ميدان طلعت حـرب، كعادتـه يبيع الكتب ويقدم الثقافة وكان العناق الحار مشهدا فريدا، ثـم ذهب إلى فندق النيل هيلتون.

- **سألته: لحظة عودتك إلى مصر.. كيف وجدتها؟ وكيف كان استقبالها لك؟**

-قال: عندما حضرت إلى مصر، هذه المرة، لم يخب ظني، نزلت من الطائرة بعد خمـس سـنوات مـن الفراق، ومن البعاد الاضطراري عن مصر، استقبلت بالأحضان في المطار من قبل الضـباط والمـوظفين

والناس، كان كل شيء يدل أن مصر هي مصر ولا يمكن لأحد أن يسرقها منا، مصر هي تراث كبير، وتاريخ عريض ورحم تشكلنا وترعرعنا جميعا في داخله وكما لا تستطيع العين أن تستغنى عن أهدابها وكما لا يستطيع القلب أن يستغنى عن شراييه، وكما لا تستطيع القصيدة أن تستغنى عن إيقاعها وعن قارئها، كذلك لا يمكننا الاستغناء عنها.

عصر الشمس

- **لماذا تهاجم الوضع العربي الراهن دائما وبصورة مستمرة؟**

-نحن نمر الآن بعصر انحطاطنا الثاني، حيث كل شيء على الخريطة مبعثر وكسور ومتشرذم. ولا أتذكر أن العالم العربي مر في التاريخ، الذي نعيه على الأقل، بمرحلة هابطة سياسياً وثقافيًا واقتصادياً، كالحالة التي تجتازها الآن. لكني أعتقد، من جانب آخر، أن اللون الرمادي في حياتنا لن يستمر رمادياً إلى ما يشاء الله، فالشعوب – كل الشعوب – تمر بحالات إحباط وانكسار، ولكن لا بد من ولادة إنسان

عربي يخرج من قارورة القمع والخوف والإرهاب والتخلف، ليدخل عصر الشمس.

- **وكيف نبدأ؟**

-المهم كيف ننقذ الفكر العربي؟ يجب أن نخرجه من حالة اليأس والقرف التي يعيش فيها الآن. المهم ألا يسقط المثقفون العرب في بئر الكفر لأنهم إن فقدوا إيمانهم بأن الشمس ستشرق مرة أخرى فسوف تصبح الخريطة العربية مقبرة لا ينبت فيها ورد ولا حلم ولا أمل.

- **ومن هذه الأرضية خرجت بلقيس؟**

-أولا: أنا جزء من التجربة الرهيبة في العالم العربي الآن، بلقيس جزء من ثلاثية، بدأت الثلاثية بقصيدتي: «خبز وحشيش وخمر» ثم «هوامش على دفتر النكسة» وأخيرا «بلقيس». ربما قد يكون في القصائد الثلاث نوع من الغضب الذي لا عقل له ولكن القصائد الثلاث في نظري كانت لا تستهدف التحطيم والتخريب بقدر ما تستهدف النقد الذاتي بمواجهة العاهات العربية وما أكثرها.

لسان الأمة

- **ألم تشعر بأي ندم بعد قصيدة بلقيس؟**

-صدقني لم أشعر بذلك الندم أبدا، لأن التفاف الشعب العربي، بملايينه المائة والخمسين، حول القصيدة، بهذا الشكل الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الشعر العربي، هو دليل على أن القصيدة كانت مكتوبة بلسان الأمة العربية لا بلساني، لقد استطعت في هذه القصيدة، أن أبكي بلسان من لا يستطيعون البكاء وأصرخ بلسان من لا يستطيعون الصراخ.

القصيدة، باختصار هي ثأر الشعب العربي، من خلفائه غير الراشدين، قد أكون قد قسوت أكثر من اللازم، على التاريخ العربي ولكن هذه القسوة تنبع من حبي للشعب العربي، ومن رغبتي في النظر إلى الأشياء بصورة واقعية دون أي شعور بالدونية أو بالتفوق، وأعتقد أننا بحاجة إلى أن ننظر إلى تاريخنا نظرة علمية وواقعية بعيدة عن الأحلام والحالمين وشطحات الحشاشين. لا

بد من قراءة التاريخ العربي قراءة متأنية وبدون مبالغات كما فعلت في قصائد الثلاث.

لما فرق بين الشعر والنثر

- **والآن، ماذا تكتب بعد قصيدة بلقيس؟**

-اكتب الآن أشياء جديدة عن بلقيس، سيكون هناك كتاب خاص اسمه بلقيس، أشعر أنني في قصيدة بلقيس لم أقل كل شيء لا تزال كل إمكانيات القول مفتوحة.

- **ماذا تكتب عنها بالتحديد؟**

-أكتب عنها قصائد الشعر المنثور، لم أعد أقيم فوارق بين الشعر والنثر، كل كلمة يمكنها أن تلعب نفس الدور، وقضية الوزن والقافية لم تعد لها أهمية ضرورية، يستطيع الإنسان أن يقول كلاماً يحمل كل الشعر دون أن يرتبط بأي وزن أو قافية، ويمكن لأي شاعر، أن يقول آلاف الأبيات الموزونة دون أن تقنع الناس بأن ما يقوله من الشعر، الشعر إذن حالة يضعنا فيها الشاعر بعيداً عن إطار البلاغة المعروفة، والقواعد المدونة.

- **نعود إلى بلقيس؟**

-هناك أشياء كتبتها عن العلاقة الحميمة التي لا يعرفها الناس بيني وبين بلقيس، كانت بلقيس امرأة استثنائية ولأنها كذلك لابد وأن يكون الكتاب الذي سيصدر عنها استثنائيا مثلها، طبعا من النادر أن تتحول امرأة إلى مصدر من مصادر الشعر، قبل موتها وبعد موتها، لكن بلقيس كانت مختلفة. حضورها معي خلال ٢١ سنة كان حضوراً شعريًا بكل معنى الكلمة. أما استشهادها فقد حولها إلى قضية كبرى لا على الصعيد الأدبي ولكن على الصعيد السياسي، لقد تحولت بلقيس بعد استشهادها إلى زعيمة كبيرة للمعارضة، لم تستطع أي سلطة في العالم العربي أن تقف في وجهها.

في قصيدة بلقيس خرج الحزن من إطاره الخصوصي ليصبح حزنًا يمتد من الخليج إلى المحيط، وليصبح ثورة بحجم العالم العربي، والحقيقة إن قصيدة بلقيس لم تكن قصيدة رثاء فكل المراثي العربية في الشعر العربي تضرب على وتر التفجيع والبكاء والاستبكاء وإنما كانت إعلاناً سياسيًا مستقراً للغضب، ينقله الشعب العربي من يد إلى يد كما يتناقل كرة من النار.

شعر جديد ينتصر على هزيمتنا

• ألا تكتب سوى عن بلقيس؟

-عندي شعر جديد فعلا، الحقيقة أن الكتابة في هذه الأيام بالنسبة لي هي محاولة إثبات الوجود والاستمرار، الكتابة بالنسبة لي شهادة حياة، أنا اكتب لأتحدى الموت نفسه، كثيرون تصوروا عندما استشهدت بلقيس أنني استشهد معها، ولكن قصيدة بلقيس التي كتبتها وأنا ممدد على سريري في مستشفى الجامعة الأميريكية في بيروت كانت محاولة للتأكد على أن الشعر والفن – بصورة عامة – هو السلاح الوحيد الذي ننتصر به على هزيمتنا.

الحقيقة إنني لن أصدق أنني كتبت هذه القصيدة في مرحلة الهذيان والدوار وفقدان التوازن ولكنني، حين وجدتها قد اكتملت بين يدي، وشعرت بمعجزة الشعر، الذي هو ملح البحر الذي يمنعنا من التفسخ والاندثار، كنت منهاراً، والشعر يعيد لي الإيمان بالنفس.

بالسلاح الأبيض

• ماذا عن المستقبل؟

-احتاج إلى فترة من الوقت أرتب فيها أوضاعي ثم استقر في مصر بعد ذلك، أصبح الكاتب يحتاج إلى حد أدنى من الطمأنينة لكي يكتب، وأنا هنا لا أتحدث عن استراحة الكاتب لأنه لا توجد كتابة جيدة في ظل الاسترخاء والطمأنينة والسلامة المطلقة، يجب أن يكون الكاتب في حالة استنفار وفي حالة يقظة لكي يقوم بفعل الكتابة، فالكتابة نوع من النزف على الورق، ونوع من الاستشهاد الجميل، لا بد وأن ندفع حياتنا ثمناً له، إن الأدب ليس شالياً على شواطئ البحر، ولا أرجوحة نستلقي عليها، ولا سريراً من ريش العصافير، ولكنه هجمة بالسلاح الأبيض على كل الخرافات السائدة في الوطن العربي، وعلى كل خيام الدراويش من المحيط إلى الخليج.

أنا أكتب ولكن هذه الكتابة تحتاج إلى مناخ حرية، ولا أستطيع أن أكتب حين يكون أحد جالساً فوق أصابعي أو فوق فكري، كل ما أطلبه من السطان – أي سلطان – أي يسمح لي بقلم رصاص لأكتب به وصيتي.

إنه مطلب بسيط جداً، وديمقراطي جداً، المهم أن يقتنع به السلطان، إن أزمتنا الأولى، في العالم العربي، هي أزمة كلمة لا يسمح لها أن تعيش حياتها الطبيعية، وأن تتكلم بصورة طبيعية، وتتنفس بصورة طبيعية، ولن تتبدل الأشياء في عالمنا العربي ما لم نرد إلى الكلمة اعتبارها ونسمع لها أن تخرج من القمقم المختوم بالشمع الأحمر، لتطير بلا عائق في سماوات الوطن العربي، إن الكلمة لا تزال في الإقامة الجبرية، ولن يكون هناك وطن عربي عظيم إلا بإطلاق سراح الكلمة لأن عصر الجواري قد انتهى، وعصر الكلمة الجارية التي تضاجع الخليفة قد انتهى أيضاً.

المرأة الجارية

- **طوال ٥٣ سنة من عمرك ولا حديث لك سوى عن المرأة . ما هي الحكاية بالضبط؟**

-فعلا، لقد قضيت ٥٣ سنة في الحديث عن المرأة، ومع هذا لا يزال هناك من يفهمني خطأ، أشعر أن مواقفي من المرأة لم تتضح بما فيه الكفاية. لا يزال هناك من يعتبرني شهريار القصيدة العربية وأن كل امرأة تمر فوق أصابعي أو فوق دفاتري مع أنني برئ

من دم النساء، ولم أكن في يوم من الأيام جامع فراشات، إنني أتعامل مع المرأة كقضية، أما المرأة الدمية والمرأة الجارية، فقد قطعت صلتي بها منذ زمان طويل، ومن أجل هذا رأيت أن أجمع كل ما كتبته عن المرأة، وعلاقتي بها ومواقفي منها، خلال الثلاثين سنة الماضية في كتاب، هذا الكتاب صدر مؤخرا. وأنا أفعل هذا من أجل تصحيح الصورة، التي رسمها النقاد عني، مع أنها لا تشبهني أبداً.

عبد الوهاب البياتي يتحدث

- مشكلتي هي وقت الفراغ، التفكك هو سمة الشخصية العربية.
- الكتاب العربي أسير الأسلاك الشائكة.
- المجلات الأدبية ميتة.
- السينما العربية متخلفة.

في مبنى وزارة الإعلام – الذي يطل على ساحة التحرير- حيث يوجد نصب الحرية للفنان العراقي العظيم جواد سليم، شاهدت عبد الوهاب البياتي جالسا إلى مكتب بالدور الرابع، على العينين نظارة طبية وأمامه نسخة من آخر دواوينه - «قمر شيراز» لم أصدق عيني، هذا الفنان كثير السفر والترحال في بغداد!! ويجلس على مكتب مثل سائر خلق الله! هل هذا معقول؟ قبل أن أقول له تساؤلاتي هذه، بانت دهشة على وجهي يبدو أنه قرأها، فبعد السلام والأحضان، قال لي موضحا، حتى دون سؤاله:

وفي نهاية سنة ١٧٩١ تركت مصر وحضرت إلى العراق، خلال هذه الفترة سافرت كثيرا إلى الخارج. مرة إلى الاتحاد السوفيتي كان هناك أسبوع ثقافي عراقي، وأخرى إلى تونس لحضور مؤتمر الأدباء وبدعوات شخصية زرت يوغوسلافيا ورومانيا وليبيا ومررت في أحدى شخصية زرت يوغوسلافيا ورومانيا وليبيا ومررت في إحدى هذه السفريات بالعزيزة مصر، حيث كحلت العين برؤيا القاهرة. كدت أن أسأله عن آخر أخباره وأحواله وما فعلته به الدنيا على الطريقة المصرية ولكني عدلت عن هذا، سألته عن قراءته وكتاباته.

-في القراءة، آخر ما قرأت كتاب الدكتور ثروت عكاشة «حضارة سومر وبابل وآشوره» وهو مجلد ضخم وفيه بجانب المعلومات القديمة عن هذه الحضارات، صور مهمة جدا لكثير من الأعمال الفنية من الرسوم والتصاوير والأدوات التي كانت تستخدم في هذه الفترات، وأعتقد أن هذه هي أول مرة تضم فيها المكتبة العربية مثل هذا السفر الضخم العظيم

وبجانب هذا الكتاب أقرأ ديوان الشعر للشاعر الفارسي سعدي شيرازي.

- **والكتابة؟.**

-صدر لي ديوان جديد من بغداد بين يدي الآن النسخة الأولى عنوانه «قمر شيراز» وهو يضم القصائد التي كتبت بعد عودتي من القاهرة مباشرة بعنوان كتاب البحر وكان من المفروض أن يصدر من بيروت وأتمنى أن يصدر في القريب العاجل.

عن اللقاء

اتفقنا على اللقاء، حضر إلى في فندق بغداد الواقع بشارع السعدون، وقت الغروب كان حضوره، وبغداد كلها تغطيها تلك الطبقة اللينة من ضباب المساء والتي تجعل المدينة وكأنها تنام خلف ستارة من المنى والأحلام الجميلة، بعد أن انتهى الحديث خرجت معه، كان الليل قد أتى وبدت لي الكلمات التي قلناها كضربات وطرقات فوق ليل العرب الطويل ذلك الليل الذي لا بد وأن ينتهي إن عاجلاً أو آجلاً بل أن نهايته أصبحت في ظل الظروف الحاضرة هي الممكن الوحيد.

• سؤالي الأول له كان عن النقد وحكايته معه، بمعنى آخر هل أوفته الحركة النقدية حقه كشاعر؟

قال البياتي:

-هناك الكثير من الدراسات، أبدأ بدراسة الدكتور إحسان عباس عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث والتي صدرت في سنة ٤٥٩١ وهي تعد من أهم وأنضج الدراسات المبكرة والتي كتبت عن الشعر العربي الحديث، من الدراسات الأخرى، «المنفى والملكوت» لشوقي خميس «الرحيل إلى مدن الحلم» لصبري حافظ «الرؤيا الإبداعية في شعر البياتي» لعبد العزيز شرف. «الأسطورة في شعر البياتي» للناقد العراقي طراد الكبيسي والذي صدر عن وزارة الثقافة في سوريا، وهناك الكثير من الدراسات المطولة الأخرى ولكنها لم تنشر حتى الآن.

• قلت للبياتي:

كل جيل أدبي يتنفس جوا ثقافياً عاماً، يشكل وجهه الأدبي، طلبت منه أن يرسم لي لوحة هذا التيار والمناخ

الثقافي العام الذي تشكلت موهبته في ظله، حيث عثر على منابعه الأولى.

- لأتحدث عن المنابع والجذور هنا أولا. أنا مدان لجانب كبير من التراث العربي الكلاسيكي والحديث وآداب الشرق الأوسط، خاصة شعر طاغور وجلال الدين الرومي، وحافظ وسعدي شيرازي، وجلال الدين العطار بجانب التراث المعاصر للشعراء الثوريين الكبار في العالم، أمثال: ناظم حكمت، وما يا كوفسكي، والوار، وأرجوان، ولوركا، وبابلو نيزودا، أعود إلى الثقافة العربية، أنا مدان للثقافة العربية في مصر على وجه الخصوص، أول ما فتحت عيني قرأت مؤلفات طه حسين، وعبد القادر المازني، وتوفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ، ثم النتاج العربي في سوريا ولبنان، لقد استقيت من الينابيع العربية الحديثة، ولهذا بدأت بالمساهمة في هذه المنابر في وقت مبكر أيضا، حيث أنني منذ ١٩٤٨ بدأت بالكتابة في المجلات المصرية والسورية واللبنانية، وكان أغلب أبناء جيلي مثلى تلاميذ في الجامعة، عبد الرحمن

الشرقاوي، وأحمد بهاء الدين، ويوسف إدريس، فنحن من جيل واحد، أما نجيب محفوظ فهو يكبرنا بقليل.

الشعر ومستقبله

طرحت أمامه قلقي الخاص والعام، منذ أكثر من عام وأنا أتصور أن الكلمة المكتوبة في خطر، تخوض معركتها الأخيرة ضد عصر الإعلام الذي بدأت بوادره بالفعل أما القلق الخاص فهو يتمثل في.

- **هل للشعر مستقبل حتى عصرنا الراهن؟**

-ابتسم ولم يبد عليه أي قلق وقال لي:

-لا بد من الربط بين مستقبل الإنسانية والتقدم ومستقبل الشعر، اعتقد أن الشعر سيظل أحد الينابيع للحياة العربية لأنه جزء لا يتجزأ من التكوين النفسي والفكري والفلسفي للإنسان العربي، إن الشعر فن قائم بذاته، ولا يمكن أن نستغنى عنه على الإطلاق، وعصر الإعلام الذي تتحدث عنه أنت بمرارة شديدة لم يؤثر على الشعر أبداً، لأن الشعر يحتاج إلى موهبة وقدرة على تقبله، وهذه الموهبة والمقدرة لا الذين

يمتلكون قول الشعر وموهبة تذوقه وتقبله هم قلة وهذا القلة موجودة في كل العصور.

وتجربة العراق

*** سألته عن رأيه في التجربة السياسية والاجتماعية في العراق الآن(١)**

- قال: - لا

أعتقد أن هناك مخاطر داخلية على هذه التجربة العظيمة لأن شعب العراق حول هذه التجربة وهي ليست تجربة شعب العراق بقدر ما هي تجربة كل الشعب العربي.

ولكن هناك أخطاراً خارجية وهذه المخاطر لا تستهدف العراق وحده وإنما تستهدف الوطن العربي، وكل دول العالم النامي، إن القوى الرجعية ما زالت تترصد لكل التجارب التقدمية في العالم، وهي تبحث عن الفرص لكي تضرب هذه التجارب.

• ما هو شعورك عندما عدت إلى بغداد؟

-شعوري أن هذا هو وطني، أخيرا شعرت أنني في بلدي وبين أهلي ولكن وجودي في بغداد فقط يقلقني

---

(١) جرى هذا الحديث في مارس سنة ٧٩٩١.

لأنني ارتبطت بالعالم العربي أجمعه وشعوري أحيانا يشبه شعور من طاف في العالم وعاد إلى بلده من جديد، لكي يبدأ حياته من جديد أيضا، ولو خيرت في المدينة العربية التي أرغب في الحياة فيها لاخترت مدينة القاهرة التي ارتبطت بأخطر مراحل النضال العربي ضد الاستعمار والصهيونية، كما أن القاهرة ارتبطت بأجمل الكتب والدواوين الشعرية التي كتبتها، حيث أتاحت لي الحياة هناك جوا من الاستقرار استطعت فيه أن أتفرغ للكتابة، ولا يعني هذا أنني قد توقفت عن المكاتبة.

- **وكيف تتابع حركة الأدب والفن في مصر الآن؟**

-من خلال ملحق الأدب والفن في مجلة الطليعة، ومجلة روز اليوسف، وما يكتبه الإخوة في مصر في المجلات العربية الأخرى.

الالتحام مطلوب بين العرب

طلبت منه أن نحاول تشخيص الوضع العربي الآن، مرت فترة صمت قبل أن يتكلم، كاد أن يقول فيه لي إن الموضوع أكبر من الحديث العابر فيه.

قال:

-إن ما أشعر به هو أن النضال العربي نضال قطري والمفروض أن يتم هذا النضال على المستوى القومي، الالتحام مطلوب بين العرب ، حتى الموارد لا بد وأن تصب كل أجزاء الوطن العربي في مصب واحد، ويجب أن نتعامل مع الوطن العربي على أنه جسد واحد.

• والشخصية العربية؟

-التفكك هو أهم مظاهر واقع العرب، لا يوجد عند الشخصية العربية الشعور بوحدة المصير، القطيعة والعزلة بين أبناء الوطن الواحد من أهم ملامح شخصية العربي.

ويكفي أن أقول لك عن المصاعب والمتاعب التي يلاقيها العربي في الانتقال من دولة عربية إلى أخرى وهذا مجرد مثال بسيط.

• والكتاب العربي؟..

-أليست مأساة عدم توزيعه في كل الدول العربية!! هناك ضرائب ورسوم جمركية، ثم الرقابة القائمة في

الدول العربية، المشكلة قائمة في الناشر والموزع والرقيب والأسلاك الشائكة التي تمزق الوطن العربي إلى دول صغيرة، كما أنه ليس هناك تخطيط ثقافي شامل في الوطن العربي وأغلب الكتب التي تصدر بالعربية إنما تصدر بمبادرات شخصية من الناشرين.

ولهذا تصل للقارئ العربي ثقافة مشوشة، ليست فيها رؤية وليس فيها تخطيط، ولكن الصدفة هي القاعدة الأساسية.

- **والصحافة الأدبية العربية؟..**

-تكاد أن تكون شبه ميتة، لأن هناك شلل تام في الصحف والمجلات الأدبية، أغلبها متخلف وآخر لا يتمشى مع روح العصر، كما أن هناك هوة بين متطلبات القارئ وبين ما تقدمه هذه المجلات، وأغلب المسئولين عن هذه المجلات هم شبه أميين، إن لم يكونوا أميين تمامًا. وهذا أدى إلى انقطاعنا عن تيار الحضارة الإنسانية، هذا إذا كان هناك استثناء لبعض المجلات القليلة جداً التي تصدر في بعض العواصم العربية، ورغم هذا ما زالت الصحافة الأدبية مرتبطة

بالسوق التجاري ولهذا ضاعت المضامين ولهذا انصرف عنها القارئ.

- **وفن العرب؟**

-لا أستمع إلى الإذاعة إلا قليلا جدا. من ناحية السينما العربية؛ الأفلام التي تعرض ما زالت متخلفة، ولا يجرى اختيارها وإنتاجها حسب خطة معينة، وأغلب هذه الأفلام تجارية، ما دتها الأساسية الجنس وروحها المغامرات، أما الأفلام الجيدة فهي قليلة جدا وتأتي بالصدفة، بالرغم من أن هناك لجانا رسمية أو شبه رسمية، في الوطن العربي، لاختيار هذه الأفلام، ولكن المصيبة تبقى هي نفس المصيبة لدرجة أنني عدلت في الفترة الأخيرة عن الذهاب إلى السينما، بالرغم من أنني من أشد هواتها، كذلك الأمر بالنسبة للمسرح، لم أشاهد أي مسرحية خلال العام الماضي، وأعتقد أن الذنب ليس ذنبي فلا يوجد هناك مسرح عربي حقيقي يمكن أن يشد المواطن ويجبره على الذهاب إليه.

العودة إلى الشعر

دون أن ندري عدنا إلى الشعر من جديد. النبع الحقيقي لكل شاعر حقيقي، بدأت العودة بسؤال على طريقة الصحافة في زماننا انتفخت أوداجي وقلت له:

- لو رشحت لي شاعرين من العراق تقرأهما، غيرك، فمن يكونان؟

قال:

-حسب الشيخ جعفر، سعدي يوسف. قالها بسرعةثم أكمل بهدوء: لو اخترت شاعرين لقراءتهما: سعدي يوسف وحسب الشيخ جعفر ومن الشعراء العرب محمد عفيفي مطر من مصر، ومن سوريا محمد عمران وعلى كنعان وممدوح عدوان وفايز خضور.

وأنت -لا أدرى هل كان يحق لي.. أن أسأل عبد الوهاب البياتي في هذا الحديث عن حياته الخاصة أم يجب الاستمرار في هذا النقاش لكل المسائل العامة، لمحت

تحت الجفون شيئا ما ينام.. سألته هل هو سعيد في حياته، وهل سيبقى هنا، وآخر قصيدة كتبها ومشروعات المستقبل، قلت كل هذه الأسئلة مرة

واحدة. وفضلت أن أستمع منه إلى رده عليها جميعا دفعة واحدة أيضاً الآن لا أعرف سببًا واحداً دفعني إلى هذا، ولكني سعدت عندما أتت إجابة البياتي كنوع من المناجاة – المونولوج الداخلي – التحدث منفردا مع النفس دون رقيب..

والآن أنقل الإجابة – المنولوج الذي قاله البياتي كما هو –

-قد أكون محظوظا. ولكن الحياة لا تعني السعادة المطلقة لهذا فأنا عشت وتعذبت ورأيت أشياء كثيرة، وكتبت كثيراً، ولكن عند مقارنة كل هذا بأحلامي أجده لا يخصني وحدي وإنما هي لا تكفي إطلاقاً لكي تحقق طموح الإنسان فيها، عندي حلم واحد مثلا وهو أن أعيش حتى أرى العالم العربي ذات يوم يقدس علماؤه وأدباؤه.

-أنا شبه متفرغ بالرغم من أن لدي وظيفة وبإمكاني الذهاب إلى عملي أو عدم الذهاب ولهذا فإن مشكلتي الأساسية في بغداد هي مشكلة الوقت، أي كيف أقضى وقتي، وهذه الفضية تسبب لي أزمة حادة باستمرار،

أعاني دائماً من أزمة الوقت الفائض الذي أعتبره في نفس الوقت زمناً ضائعاً.

-أخر قصيدة لي هي: (حب تحت المطر) وعنوان القصيدة عنوان رواية لنجيب محفوظ، وأنا أعرف هذا، ولكني لم أجد للقصيدة عنواناً سوى هذا وأشكر نجيب لأنه سبقني إلى هذا العنوان، والقصيدة قصة رجل وامرأة ضائعين، يلتقيان في لندن ويتحابان ويسيران ليلة كاملة تحت المطر وهما يتهامسان ويتحاوران ثم يفترقان إلى الأبد.

لا يمكن الحديث عن المستقبل وحتى لو تحدثت أفضل أن يكون هذا الحديث عن المستقبل العام.

مستقبل الشعر وهو مرتبط بعملية التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي، الحديث عن المستقبل يعني أن نتكلم عن التجديد في الشعر وهذا لا يتطلب سنة أو عشر سنوات، بل قد يحتاج إلى قرن من الزمان، وهذه قضية يؤكدها التاريخ الأدبي العربي، أو تاريخ الآداب العالمية لأن التجديد في هذه المرحلة أو تلك قد يستوعب كل حركة التجديد خلال الفترة الزمنية وهذه الحقيقة أكدها كثير من الشعراء.

اعترافات مبكرة

للدكتور عبد الرحمن منيف

دون أن أدري تحول هذا الحديث إلى اعترافات مبكرة جداً. ربما أتت قبل أوانها من جانب الدكتور عبد الرحمن منيف، ويجب على بدوري أن أرتفع إلى مستوى الصدق الذي قدم به اعترافاته أن أقدم كل هذا باعتراف صغير يحدد موقفي منه، والذي أتذكره الآن أنني قابلت روايتي الأولى عندما صدرت بقدر من الفتور، وعند قراءتها كانت قراءة تنطلق ممن موقف عدائي مسبق، أي أنني كنت أبحث عن عيوبها وعما يشوبها، ولهذه الحالة أسبابها التي لا تمت إلى صاحب الرواية بأي صلة، والذي أتذكره الآن بوضوح تام أن التوقيت العام لصدور هذه الرواية هو السبب في موقفي منها ومن صاحبها، فقد صدرت رواية «الأشجار واغتيال مرزوق» في فترة صدرت فيها – ربما بالصدفة وحدها – أكثر من رواية عربية في أكثر من قطر عربي مما دفعت بأكثر من ناقد أن يكتب مرددا هذا المعنى، لقد انتهى عصر الرواية في مصر، وانتقلت الرواية إلى الوطن العربي، والروائيون العرب قادمون على الطريق، وعلى الرغم من

إيماني العميق بقومية الوطن العربي الواحد، وإيماني أن مجرد قول: الرواية المصرية، والرواية العراقية هو مجرد فخ منصوب لنا لتحول الوطن العربي إلى مجموعة من الدول المختلفة، أقول على الرغم من كل هذا، إلا أنني أحسست بضيق شديد من هذه الدعوى، وبدأت تحت تأثير هذه الحالة النفسية في قراءة رواية «الأشجار واغتيال مرزوق» من الصعب الآن تذكر الأثر الذي تركته القراءة الأولى في نفسي فكل الجزئيات تفر هاربة إلى النسيان ولا يبقى سوى الانطباع العام، وأشهد أنه كان حسنا لدرجة أن كل المواقف السابقة ذابت وضاعت تحت حرارة اللقاء مع هذا الروائي الجيد وبعد فترة قرأت له روايته الثانية «قصة حب مجوسية» وسافرت إلى بغداد وهناك أعطاني نسخة وحيدة من عمله الثالث «شرق المتوسط» وقراءته بلهفة وأدركت أني أمام روائي بالمعنى العريض لهذه الكلمة. لا أعرف ما يجب قوله في هذه اللحظة لكي أنقل للقارئ الانطباع الذي تركه في عبد الرحمن منيف ولكني لا اعتقد أن كلمة روائي تكفي فالوطن العربي الآن ملئ بآلاف ممن يكتبون الرواية ولا يستحق الكثيرون منهم كلمة: روائي، أثناء وجودى في

العراق قرأت له مقالا عن إحدى رواياتي «أيـام الجفـاف» أدركت منه أن الرجل قد مد جسوره إلـى الفـن الروائـي وأدرك أسراره الداخلية وخلال ثلاث لقاءات طويلة أذهلتنـي متابعته الدقيقة والرؤية لكل ما يمت إلى فن الرواية بصلة مع متابعة جيدة لإيقاع فنون العصر كله بشكل يثيـر الإعجـاب كان هذا هو اعترافي الصغير والآن إلـى اعترافـات عبـد الرحمن منيف الكبيرة والكثيرة.

الإنسان أولا

احترت أي الأسئلة أبدأ بها ولكن لفتت نظرى قضـية غريبة وهي موقفنا من شخصية الكاتب المبدع، نحن نتعامل فقط مع النص والعمل، وكأن مبدعه آلة في جهاز ضـخم لا يوجد فيه ما يميزه عن الآخرين، ذلك خطأ على طول الخط فشخصية المبدع، وظروفه الخاصة ورؤيته للعـالم وفهمـه الشخصي للأمور. كل هذا لا بد وأن يترك بصماته على مـا يقدمه الفنان في النهاية ولهذا بدأت بسؤال أساسي: قلت لـه: من أنت؟

ولأنه رجل حذر لم أعرف إن كان قد فوجئ بالسـؤال أم أنه كان يتوقعه وبدأ الإجابة، قال الدكتور منيف:

في أحيان عديدة تكون أبسط الأسئلة وأكثرها عادية هي الأسئلة الأكثر صعوبة والأخطر فالإنسان في التصاقه اليومي المستمر مع الذات لا يستطيع أن ينفصل عنها وينظر إليها من مسافة كافية فيتعرف عليها ويحدد موقعها في الزمان والمكان ولا يمتلك بالتالي إجابة واضحة ومقنعة لمثل هذه الأسئلة أو يكتفي بالإجابة التقليدية التي تقنعه وتقنع الآخرين أيضا ولذلك أردت أن أتبع طريقة الآخرين في الإجابة أو طريقة قريبة منها أقول إنني واحد من هؤلاء الملايين التي تعيش بين الماءين، فإذا اقتنع الآخرون بالإجابة يمكن أن ينتهي الأمر، أما إذا استمر السؤال قائما فأقول إنني أقرب إلى عدم المعرفة، فوالدي الذي ترك نجد مثل كثيرين غيره، ومثل عادة العرب الرحل عندما يقل الماء وينتهي الكلأ فيهاجرون، هاجر والدي ضرب في الأرض وراء الماء والكلأ وفي تجواله الطويل كان يتوقف بعض الوقت في أماكن معينة، توقف في رحلته الطويلة في العراق ثم الشام ففلسطين فمصر، وربما ذهب أبعد من ذلك وعندما تعب من الرحيل وأصابه الحنين إلى الوطن بدأ رحلة العودة، ولكن الرحلة هذه المرة كانت أكثر صعوبة وبطئا، وأصبحت

المحطات طويلة قضى وقتا طويلا في الشام مرة أخرى، تزوج وأنجب، وفي عمان توقف يلتقط أنفاسه قبل أن يضع قدميه على أرض الجزيرة العربية، وفي هذه المحطة الأخيرة ولدت، وإذا كان الإنسان لا يعرف في أي أرض يولد وفي أي أرض يموت، فإن أرض الولادة تعني دائما كل شيء، المهم ما يتبع الولادة، وإذا كنت قد حملت عن أبي الرغبة في التجوال الدائم والرحيل، فإن المناخ الأولى عالقة بأنفي حتى الآن: رائحة الجمال في الساحة الكبيرة وفي تستعد للرحيل، وجوه البشر وهي تتقابل بعد سنوات طويلة من الفراق، رسائل شفوية يحملها المسافرون للمقيمين، ثم رائحة الأشياء الأخرى، مدينة بسيطة صغيرة تتحول بين إغماضة عين وانتباهها من السكينة المغرقة في ظلام الوادي العميق، إلى مدينة تستقبل عشرات الأشياء والبشر الذين ليس لها بهم عهد، جيوش الحلفاء الذاهبة إلى الحرب أو العائدة من الحرب، الجنود بألوانهم المتباينة بين السواد الفاحم والشقرة الحادة ووجوههم المتعبة، قادمون أو ذاهبون إلى الحرب، وما يرافق ذلك من شعور حاد بالرحيل المادي أو المعنوي، السفر أو الموت، وفي غمرن ذلك يموت المسنون، ويموت

أبي قبل أن تطأ قدماه أرض الجزيرة، ونبقى في انتظار القافلة الأخرى التي ستسافر، لكن واقع الحياة في المدينة الصغيرة أخذ شكلاً جديدا هذه المرة، شكلاً متسارعاً، فلم يترك للأشخاص أن يقرروا وفي ظل هذا الانتظار الطويل المحض تقع أشياء أخرى جديدة ولكن الأطفال يذهبون إلى المدارس يراقبون، يتعلمون، ينتظرون ويستعدون للرحيل،

يستعدون. في هذا الجو وفي ذلك المكان وأثناء محطة من محطات الطريق إلى الجزيرة ولدت، وبعد أن سافرت قوافل كثيرة ولم أكن ضمن أي من هذه القوافل، اضطرت لدخول المدرسة لتعلم بعض الأشياء لكن هاجس الرحيل لم ينته ولم يتوقف، وفي هذه الفترة بدأت رحلة من نوع جديد، رحلة خاصة لم تحدث إلا مرة واحدة في التاريخ، رحلة الفلسطينيين الذين بدأوا يصلون يوما بعد آخر بالمئات إلى المدينة الصغيرة إلى المحطة التي كانت على أطراف الصحراء، وفي ظل تفاعلات معقدة للغاية، تكونت أشياء كثيرة وولدت أشياء كثيرة الرغبات والأفكار والشعور الحاد بالهزيمةوالمعرفة المباشرة بالخيانة والضياع، أخيرًا رغبة

تغيير هذا العالم الذي أصبح ملكاً للأشرار والأفاقين والمجرمين، وفي خضم الرغبة والحلم بدأت الرحلات، رحلة إلى الداخل ورحلة أخرى إلى الخارج، وربما لا تزل هذه الرغبة - الحلم الرحلة – قائمة إلى الآن.

ربما لم يكن ما قلته سوى إضافة غموض جديد إلى الغموض الأساسي: من أكون؟ وبذلك أيضاً أستطيع القول بشئ من الجرأة جوابا على هذا السؤال لا أعرف تماماً وبدقة، كل ما أعرفه أني واحد من الملايين الفقراء الذين يعيشون على الأرض العربية الشديدة الغنى والقسوة في وقت واحد. ولأني هكذا، ولأن الحياة حولي هكذا، فقد امتلأت منذ الصغر بالتمرد والرفض ولا زال كذلك حتى الآن، ولأني هكذا ولأن الحياة حولي هكذا، إذن لا أعترف أنني لا أعرف في أي بلد وإلى أن يتم الاعتراف سأبقى متجولا دائم الرحيل.

التعرف على الذات

قلت للدكتور منيف:

- **لكل منا إرهاصات ثقافية اولى، بالنسبة لك ما هي هذه الإرهاصات الأولى، خاصة التي حددت اتجاهك إلى الرواية بالذات؟**

-مثل كثير من الفقراء الحالمين كنت أرسم على وجه السماء خيولاً راكضة باستمرار، كنت أفعل هذا عندما تكون السماء شديدة الزرقة وليس فيها غيمة واحدة، وكانت هذه الخيول شديدة الزرقة وشديدة القوة، وكانت تسافر دائما، وكنت امتطيها باستمرار وأسافر، لكني في هذا السفر لم أكن أبحث عن شيء أو أعرف شيئا حتى جاء يوم ملك فيه أن أسافر ببلاهة هكذا، فبدأت أبحث عن أهداف السفر، بدأت أول مرة أبحث عن شخص ثري عادل ينقذ الناس، وبدأت أبحث عن أميرات شقيات يتطلعن باستمرار نحو الأفق وينتظرون من يخلصهن، وبدأت أبحث عن الجواهر الصغيرة في مياه الأنهار، لكن بحثي كله ضاع وانتهى بلا جدوى فقررت أن أتعلم القراءة، إن تعلمي كان بداية رحلة العذاب الحقيقية على الأرض، خاصة إذا كانت في روايات الجيب، لقد علمني أخي هذه

الرحلة وقادني في مسالكها الغامضة الملعونة، كنت أقرأ كل يوم رواية، كنت أجد نفسي مستغرقاً في عالم شديد الكثافة والغموض والشر، وأن هذا العالم يحاصرني لدرجة لا يمكن الإفلات منه، وانقضت سنوات عديدة كانت روايات الجيب هي الزاد الوحيد، لكن جاء يوم لم أستطع فيه الاستمرار، بدأت أبحث عن شئ آخر فوجدت في لعبة البحث المجنونة «المنفلوطي» و«جبران».. وظللت أعيش فترة تحت «ظلال الزيزفون» وتحت ظلال «الأجنحة المتكسرة» ثم كانت رحلة أخرى مع «الأيام» و «على هامش السيرة» ثم كانت رحلة أخرى مع «الأيام» و «على هامش السيرة» وانتهت تلك الأيام إلى توفيق الحكيم وعبد الحليم عبد الله، وكانت وقفات هنا وهناك حتى كان أحد المرافئ الأساسية لدى نجيب محفوظ وإذا كان نبض المرافئ يشد الإنسان ويسترجعه بين سفرة وأخرى، فقد ظل مرفأ نجيب محفوظ أحد المرافئ الأساسية، لكن رحيل الإنسان الدائم في المكان والزمان جعل التوقف في حالات كثيرة صعبا.

أستطيع أن أزعم أني قارئ جيد، لكن لم أفكر يوما بالكتابة، كنت أكتفي بالمراقبة النشيطة دون أية رغبة أو فكرة بالكتابة وإذا كنت قد اقتنعت بذلك خلال فترة طويلة فإن هموم العمل السياسي وتفاصيله اليومية قد استغرقتني تماما، فلم تبق الرواية الهم الوحيد، إذ أصبح إلى جانبها هم البحث عن الحقيقة والعدالة في العمل اليومي، وفي العمل السياسي على وجه التحديد ومن هنا وجدت أن دولاب الحياة لا يترك للإنسان القدرة على التوقف أو الاختيار، وهكذا انتهت خيول السماء لتبدأ عوضا عنها قطارات الأرض والسفن والشواطئ البعيدة، وبعض الأحيان ركوب الحيوانات للانتقال من مكان إلى آخر من أجل إيصال أوراق صغيرة كان ضمنها بعض الروايات.

وفي خضم التغييرات الكبيرة – السلبية والإيجابية – لا يستطيع الإنسان أن يتوقف دائما ليتأمل ويعيد تركيب الصورة ولذلك توارت رغبات كثيرة لتحل أخرى مكانها لكن في لحظات معينة، وغالبا ما تأتي هذه اللحظات بشكل مفاجئ يتوقف الإنسان دون إرادة وبعض الأحيان دون وعي ليتأمل، يتوقف ليغير اتجاه السير، وإذا كان أبي قد تركني صغيرًا

وحملني همه كبيرًا كما قال شاعر جاهلي، فقد تصورت أني مضطر للتوقف وإعادة النظر لأن الفرق كبير بين ما كنت أطمح إليه، وما بدأت أراه بين ما حاولته وبين ما وصلت إليه ومن هنا كانت إجازة كبيرة بعض الشئ وإذا كان الإنسان حتى في الإجازة لا يستطيع أن يتوقف عن بعض العادات السيئة فقد عاودتني رغبة القراءة بجنون ثم أنفجر بداخلي عواء أني يجب أن أفعل شيئا آخر غير القراءة فكانت محاولة الكتابة.

إن هذه المحاولة جاءت متأخرة كثيرا. وجاءت الاعتبارات وأسباب خارجة عن إرادتي وقد تنتهي أو تتوقف، ولذا كان مجيئها يعني بداية مرحلة جديدة في حياتي.

إنني الآن أقرب إلى البوح من الاعتراف الكامل، وأن لذلك أسبابا كثيرة لا يجب ذكرها كلها.

فهل يمكن اعتبار ذلك كله جوابا أو أسئلة وإشكالات جديدة أطرحها على نفسي بصوت عال؟ لك أن تستنتج ما تريد

- **على الرغم من أن القصة القصيرة والرواية فن لكل منهما مفرداته ولغته ورؤيته الجمالية الخاصة والتي تصل إلى حدود الاستقلال، ولكن جرت العادة على أن يكتب الروائي القصة القصيرة في وطننا العربي وأن يكتب القصاص رواية في حدود تجربتك ألم تحاول معالجة القصة القصيرة؟**

-لم أكتب القصة القصيرة لأني أجد المتعة في كتابة الرواية ، الرواية أقرب إلى المغامرة والجنون ورغبة تكون العالم ثم إعادة بنائه ومن هنا أجد الرواية وسيلة أكثر فاعلية وأكثر تأثيرا وأجدها أكثر رحابة أيضا.

يمكن أن تقول في رواية واحدة ما لاتستطيع أن تقوله في عدة مجموعات من القصص القصيرة ، صحيح أن الشئ لا يقاس بعدد الصفحات لكنه يقاس بعدد الشخصيات، بعدد الحالات وأيضا بتغيير الأشخاص والحالات، لذلك يمكن أن تقول من خلال ذلك أشياء كثيرة وخطيرة.

وعلى أن أضيف شيئا آخر، إنني أكتب الرواية لأن هذا الذي أعرفه، أو أزعم أني أعرفن كان بودي أن أكتب

القصة القصيرة، وكان بودي أن أكتب المسرحية لكني لا أعرف بعد التعامل مع هذه الأدوات الخطيرة وحتى القصص القصيرة التي كتبتها فإنها إضافة إلى كونها أقرب إلى الرواية فقد قال قارؤها أن فيها نفساً روائياً، ومع ذلك لا زال في بداية الطريق فإذا أتيح لي أن أتعلم أشياء جديدة سوف لن أتردد أبداً، سوف أقبل عليها بنهم كبير.

إن القصة القصيرة مثلها مثل القصيدة تشبه بندقية ذات طلقة واحدة، كلهم يعرفون كيف يستعملونها ومتى. وحتى اللحظة الحاضرة أفضل استعمال بندقية ذات طلقات كثيرة لعل إحدى الطلقات تصيب.

- **بالنسبة للروائي العربي يظل النقد الأدبي أحد همومه المتجددة، ليس من ناحية الإنصاف أو الظلم بقدر ما يكون من ناحية دور النقد بالنسبة لعملية التوصيل، ما هو موقف النقد منك؟**

-إنهم يقولون، ماذا يقولون؟ دعهم يقولون.

لقد قيلت أشياء كثيرة عني لا أستحقها لكن دافعها في أغلب الأحيان حسن النية، وإذا كان لي كلمة يمكن أن أقولها في هذا المجال فهي أني جئت إلى عالم الرواية من حيث لم

يكن يتوقع أحد من عالم السياسة، والكثيرون يتصورون أنـه ليست هناك رابطة بين الإثنين وهذا هو الخطأ، إن العـالمين متشابكان لدرجة لا يمكن التمييز بينهما، إنهما وجهان لعملة واحدة أو هكذا يجب أن يكون.

وأما ما قاله النقاد فإنه أقـرب إلـى الحيـرة، إنهـم يتحدثون كثيرا لكنى لا أفهم كل ما يقولونه، وإذا كان لهم كل الحق في أن يقولوا ما يشاءون فإن لي الحق أيضـا فـي أن أكتب ما أشاء وذات يوم سوف نتفهم بعضنا أكثر، ربما وقفنا على أرض مشتركة.

هكذا هي الصورة الآن، ليست لي شكوى فقد أخـذت أكثر مما استحق لكننا لا نملك حتى الآن لغة واحدة.

ولأن شكراً للذين قالوا كلماتهم، وشكراً للذين لم يقولوا، لأن الصمت في حالات كثيرة أكثر دلالـة وأكثـر صـدقاً هؤلاء الصامتين ينتظرون شيئا مهمًالـم أقلـه حتـى الآن، وربما حاولت قوله ذات يوم..

- **نحن في مصر نعرف عنك أنك ولدت فـي الأردن مـن أصل سعودي وتربيت في أوروبا وأقمت فترة طويلـة في الشام وتعيش في العراق، وفي تصوري كروائي إن**

ذلك يقيم مشكلة أساسية، فالروائي يحتاج إلى التعامل مع بنية اجتماعية يعرف لغة التفاهم معها، كيف تحل هذه المشكلة؟

-إن جواز السفر في حالات كثيرة لا يحدد هوية الإنسان وإن كان يسهل أمامه المرور فقط، وجواز السفر بالنسبة لي مشكلة أكثر تعقيداً مما يوحيه السؤال. إن الإنسان بدون أرض أقرب ما يكون إلى النبتة الاصطناعية ولا يمكن أن يقدم شيئًا حياً، ومن هنا فالمشكلة بالنسبة لي ليست كوني من السعودية وأقيم الآن في العراق، وإنما لأني في حالة رحيل دائم والرحيل إذا كان مفيداً في أغلب الأحيان فإنه يصبح عديم الجدوى إذا افتقد الإنسان ميناء أخيراً، ومن هنا ولهذا السبب أحاول إقناع نفسي أني أملك الأرض العربية كلها وأنها بيتي وأنها وطني، وفي مكان فيها سيكون لي قبر، هكذا أحاول أن أقتنع، صحيح أنني لم أستطع الوصول إلى هذه القناعة لكنني أحاول، هذا في جانب وفي الجانب الآخر، ومن خلال التجوال والانتقال من مكان لآخر، أجد أن الأشياء والحالات

تتكرر لدرجة إني لا أعرف أين أنا. إن التشابه والتماثل في الأوضاع العربية لا يجعلك تميز قطراً عن آخر. حتى الطقس والبيئة وألوان الوجوه متقاربة لدرجة أن رجلاً عرفته في بغداد تظن أنك رأيته وعشت معه في دمشق وما عدا اللهجة فإن كل الأشياء واحدة. وإن كنت في رواياتي كلها قد رفضت أن أسمي الأمكنة فقد قال الكثيرون وفي بلدان عديدة أني ما عنيت إلا هم.

إن الواقع الاجتماعي مفتوح على الاتجاهات الأربعة ويمكن التقاط المادة الروائية من المنجم الكبير بسهولة. ولأن الفقير يحس ألام الفقراء ويعرف همومهم، ولأن الشقي يعرف أسباب الشقاء ويحاربه ولأن المطاردين يخافون من الأشباح ويتجنبون الاقتراب من المقابر والأماكن الموحشة فإن الذي عاش مع الفقراء وغرق في الشقاء ويخاف كل وقت من سحب جواز السفر، لا يحتاج إلى الكثير من الروابط المحلية لكي يقول ما عنده كما لا يخاف الانتقال من حالة إلى حالة أخرى.

هل تسمى هذا هروبا من الجواب؟ ربما كان فيه شئ من الحقيقة، لكن مع ذلكوعلى امتداد الأرض العربية كلها، من الماء وإلى الماء، في الجانب الآخر فإن الشقاء والذل وامتهان كرامة الإنسان، وعملية القتل اليومية وأشياء أخرى كثيرة، إن هذه الأشياء تجرى تحت سمعنا وأبصارنا، وما علينا إلا أن نملك شيئا من الجسارة ونقول الحقيقة أو جزءا منها وعند ذلك نكون قد قلنا شيئا كثيرا، بما في ذلك روايات جديدة، وفي نطاق هذا السؤال يجب أن تلاحظ أن الإنسان عندما يفقد أشياء كثيرة في هذه الحياة لا يعود حريصًا ، بمعنى إن الأمور قد تتساوى لدرجة أنه يمكن أن يقول أشياء لا يقوى على أن يقولها الآخرون، الآخرون الذين يملكون الكثير ويحرصون على هذا الكثير، وإذا كان أحدهم قد قال يوماً عن الفقراء أن ليس لديهم شئ يخسرونه، ولكن لديهم العالم كله ليربحوه، فإني أحاول الاقتناع بهذا الرأي ومحاولة تطبيقه أيضا ًومن هنا أمتلك أشياء قادمة، وأحرص على أن

أصل إليها.

العرب وفن الرواية

- **الرواية فن وارد، كيف نطوعه لظروفنا العربية الخاصة بناء؟ بمعنى كيف نصل إلى شكل بسيط أقرب إلى تراثنا القديم من الحكايات الشعبية السهلة والبسيطة ونقول من خلاله ما نريد قوله، وهي نفس المحاولة التي يحاولها العرب الآن في المسرح؟**

-أي شئ غير وارد، أي شئ ينبت في هذه الأرض في هذه المرحلة! أي شئ جاء من الخارج وطوعناه! وعشرات الأسئلة الأخرى التي تدور في الرأس مثل طواحين الهواء وتفرض نفسها في هذه المرحلة.

وإذا كان من حسن حظ الرواية أنها كالنبات لا يمكن أن تعيش إلا إذا احتضنتها التربة ونمت في رحمها، فإن أشياء كثيرة في الحياة العربية لا تملك هذه الخاصية حتى التكنولوجيا التي يتحدثون عنها هذه الأيام ويريدون استيرادها وهي لا يمكن أن تستورد إلا إذا كانت قادرة على الحياة وعلى العطاء.

لقد أصبح للرواية العربية مأوي، صحيح أنها جاءت من الغرب ولكن استطاع بعض الرواد أن يبنوا لها أعشاشاً صغيرة لتضع فيها بيضاً تمهيدا لفصل الربيع، وإذا كان

الربيع لم يأت بعد وإذا كانت الرياح العاصفة لا تزال تـأتي عبر البحر فإن الأعشاش الصغيرة فـي الأمـاكن المظلمـة الدافئة قادرة على حماية البيض وسوف تفرخ قريبا، لم تولد الرواية العربية التي نريدها بعد، ولم يولد الروائيون الـذين يضربون عميقا في الأرض لكن البشائر التي حملها بعض الرواد البيض الذي وضعوه يمكـن أن يعطـى ويمكـن أن يساعد، ليست العملية ميكانيكية تماما لكن المطر ينبت العشب وما دمنا في فصل الأمطار وما دام الوطن العربي مليئا إلى درجة التخمة بموادر وائية غير متاحة في أماكن أخرى ولأن التناقضات من الضخامة والقسوة إلى درجة يمكن أن تفتت الحجر فإن العملية الروائية لا بد وأن تنمو تزدهر لكن شرطها الأساسي الإخلاص، يجب أن يتمتع الروائيون بمقدار كبير من الإخلاص والنزاهة، ويجب أن يتأملوا البيئة التـي يعيشون فيها بوعي وأن تدور رؤوسهم بالزوابع التي تحملها الأعمال القادمة من الغرب وعندما سيكونوا قادرين على أن يقولوا شيئا هاما وشيئا يعبر البحر إلى الضفة الأخرى لـدينا في القديم تراث هام لا أقول أنه روائي تمامًا ولكن فيه شـيئا كثيرا من روح الرواية ويمكن أن يساعد على خلق التـراث

الروائي العربي فإن استطعنا المزاوجة بين روح العصر من ناحية وطبيعة المشاكل التي تحدث ، عندها يمكن أن تنهض الرواية وعندها يمكن طرح السؤال: هل الرواية فن وارد أو غير وارد؟ عندها نقول هذه هي الرواية العربية.

إن الرواية العربية المعاصرة هي أمل الفنون العربية المأزومة فإذا كان الشعر يعيش أزمة حادة وإذا كان الفن التشكيلي لم يستطع بعد أن يعطي نفسه ملامح متميزة حاسمة وإذا كانت القصة القصيرة تنهض وتقع تبعاً لمقدرة كاتب بالذات فإن الرواية العربية تعيش بدايتها، والبدايات أغلب الأحيان تضيق بالأزمات وإن كانت محدودة التأثير أيضا.

الرواية العربية أمامها حقول الأرض كلها لتزرعها ولديها من وسائل التعبير ما ليس متاحا لغيرها، وإذا كان الرواد قد شقوا الطريق فعلى الآخرين أن يعبروه وأن يزرعوا على جوانبه الأشجار الكبيرة وعند ذلك نخرج من السؤال بصيغته الحالية إلى صيغ جديدة كيف يجب أن تكون الرواية؟ كيف نستطيع أن نطور الرواية، أن نبلغ بها أفاقاً جديدة وهكذا..

- **يلاحظ على رواياتك الثلاث: «الأشجار واغتيال مرزوق» و «قصة حب مجوسية» و «شرق المتوسط» أن كلا منها تطرق موضعاً مختلفاً عن العمل الآخر، كيف تحدد خط تطورك من خلال الأعمال الثلاثة؟**

-الكاتب. أي كاتب لديه شئ يمكن أن يقوله والمجتمع الذي نعيش فيه يزخر بآلاف النماذج والمشاكل وطبيعة الحياة تتغير كل يوم، الماء الجاري لا يمكن أن يمر بالجسر مرتين، إنه يسير دائما إلى الأمام، هذه البديهات التي تحدد وتوجه وتخلق الإمكانيات لأي عمل فني شريطة أن يلتقط الفنان بعين مبصرة وذكية، المادة التي يريد معالجتها ويقدمها للناس بصدق وإخلاص، صحيح أن لدي كل إنسان نظرة وفلسفة أو وجهة نظر على الأقل تجاه كثير من المشاكل والقضايا وهذه النظرة أو الفلسفة توجه باستمرار وتفرض نفسها لكن طبيعة المشاكل المطروحة وكيفية التعامل معها تساعد في حالات كثيرة في إيجاد الإطار الفني ولتجنب تكراره.

إن الكاتب، أي كاتب، إذ تصور أنه بلغ الكمال وأنه قدم أحسن ما عنده يكون قد انتهى تماما. إن الرغبة بالتجاوز، الرغبة في الأجمل والأفضل، الرغبة بإيصال ما يراد إيصاله بشكل أنضج تبقى المحرك والمحرض الأساسي لأي فنان.

لو أتيح لي أن أكتب رواياتي مرة أخرى لربما كتبتها بشكل أفضل، لكني عندما كتبت كنت راضيا بهذا فقط، ومع ذلك فإن الحلم يتجاوزها هو دودة كل فنان، ومهمة هذه الدودة أن تجعله غير راض عما فعله حتى الآن فعدم الرضا عامل محرك ووجوده يدفع إلى أحد حالين إما التجاوز أو الصمت وكلا الأمرين مفيد ومهم لأي فنان.

وفي نطاق الإجابة على هذا السؤال تبقى أناشيد ناظم حكمت محرضاً أساسياً حين يقول: إن أجمل الأغاني هي تلك التي لم نغنها بعد وأجمل الأعمال التي لم نقم بها بعد. إن هذه الأناشيد وما يشبهها تجعل الفنان أي فنان قادراً على أن يعمل شيئًا أفضل.

الرواية العربية مرة أخرى

- **إذا قلنا إنه توجد في الوطن العربي حركة روائية متكاملة ما هي أهم ملامحها؟**

-الحركة الروائية في الوطن العربي حتى الآن هم وطموح، لا يمكن الزعم بوجودها لكنها ليست متقدمة أيضاً ، أنها في طور التكوين، في طور النمو وإلى أن تتوافر لدينا عشرات الأمثلة والنماذج، وإلى أن ترتفع روايات كثيرة ولها نكهتها الخاصة ومذاقها المتميز، يمكن أن نقول بوجود الرواية العربية.

لدينا حتى الآن بعض الروايات لكن ليس لدينا الروائيون، عند نجيب محفوظ وحتى هذا الكاتب الكبير بدأت أصابعه ترتخي في الفترة الأخيرة خاصة عندما أغرته السينما والرواية، وفي أى بلد وفي أي مرحلة لا تقاس أو تقيم برواية واحدة نشرت هنا أو هناك في هذه الفترة أو تلك وإنما تقاس وتقيم من خلال عملية متكاملة من خلال جيل من الروائيين وإذا كانت الحياة الأدبية الروسية أو الأمريكية قد تميزت بروايتها الخاصة في مراحل معينة كان هناك عدد كبير من الروائيين، ولأن هؤلاء خلقوا حركة روائية متكاملة.

في الوطن العربي وخلال هذه المرحلة لا يوجد مثل هؤلاء الروائيين وبالتالي ليس هناك حركة روائية، إنها حالة جنينية وعلى ضوء نتائج المستقبل يمكن أن نصدر أحكاماً أكثر دقة.

أما عن الملامح فإن أكثر الأشياء تغيراً هي ملامح الأطفال وكما يقال في المثل العامي، إن الطفل تتغير ملامحه أربعين مرة قبل أن يستقر، هكذا حال الرواية العربية الآن، إنها موجات متتالية لكن دون ملامح. ولا بد أن تتغير كثيرا وتمر في أطوار عديدة قبل أن تكتسب ملامحها المميزة ولذلك فإن من الأفضل تركها لكي تكتسب هذه الملامح.

العودة إلى النقد

- **أليس غريباً ألا يظهر حتى الآن في الوطن العربي كله ناقد روائي كبير ومتخصص في نقد الرواية وإرساء دعائم قيمتها الجمالية ومفرداتها، أنا لا أحلم بأن يوجد لجيلنا لوكاتش عربي ولكن أليست ظاهرة غريبة؟ وما هو تفسيرها؟**

- عملية النقد عملية إبداعية بالغة الأهمية والتأثير وبدون حركة نقدية رصينة وجادة سوف تبقى عملية

الخلق الفني متعثرة وغير مرتكزة على أسس قوية، هكذا يجب أن نفهم العملية النقدية وهكذا يجب أن تكون النظرة، أما النظرة السطحية أو الجزئية والتي تعتبر العملية النقدية مجرد إضافة كمية أو تفسير له فقط فإنها نظرة خاطئة. إن

للنقد مهمتين أساسيتين الأولى: أن يهيئ الشروط المناسبة للخلق الفني والثانية: أن يتابع هذا الخلق في جميع مراحله من اجل توضيحه وتعميقه وإغنائه من خلال هاتين المهمتين يكتسب صفة الإبداع، وإذا أخذنا على الرواية العربية ضعفها وتعثرها وعدم وجود ملامح لها، فإن النقد سبب في هذه الحالة لأنه لم يسهم المساهمة الضرورية في وضع المقاييس والأسس التي تقاس ويرتكز عليها العمل الفني بحيث ظل الكثير من الأعمال الفنية بالنسبة للكاتب والقارئ معا مجهولة أو غير مدروسة بعناية.

وإذا كانت عملية الخلق الفني والإبداع تحتاج إلى موهبة فيبدو أن الناقد الجدير بهذه التسمية بحاجة إلى موهبة مضاعفة لفهم العمل الفني ووضعه في مكانه من حيث الزمان والمكان ومقارنته بالأعمال المماثلة واكتشاف نقاط

القوة والضعف فيه، أما الاستمرار في التقييم الشخصي الذي يفتقر إلى الموضوعية والفهم والذي يقع في مقولات عامة مكررة فإنه يجعل عملية النقد ذات أثر سلبي ويفسد الذوق العام ويساعد في أضعاف الخلق والإبداع.

أما لماذا لم يظهر الناقد المتخصص ولماذا لم يظهر لو كان عربي فأتصور أن الأمر لا يقتصر على الناقد الروائي إنما يمتد إلى عشرات الاختصاصات ويتجاوزها أيضا، إن وجود لوكاتش محصلة لوضع عام، إنه لم يشق الجدران ويخرج منها وإنما ولد في بيئة مهيئة لوجوده واستقباله ولو لم يكن هو بالذات لكان غيره، قد يكون هذا الغير أكثر أو أقل أهمية لكن الظروف الموضوعية مهيأة لوجوده بعكس ما يحدث في المنطقة العربية وفي الظروف الراهنة وفي زحمة الانشغالات اليومية والبحث المتواصل عن لقمة الخبز وتأمين الحد الضروري من إمكانية الحياة والاستمرار، إن هذه الأوضاع غير قادرة على خلق لوكاتش إلا بكثير من الصعوبة والمعاناة والتضحية الشخصية فالناقد المتفرغ للعمل الروائي لا يمكن أن يقتات من السماء كما لا يمكن أن ينتظر الهبة التي لا تأتي، إنه بحاجة لأن يكون موظفا في مكان ما

وأن يعمل عدد من الساعات في مجلة أو دائرة لكي يؤمن قوته وأن يمتلك إمكانية شراء الكتب والسفر، إن وضعا مثل هذه لا يتيح التخصص أو التفرغ ولذلك لا يمكن أن نكتشف لوكاتش فجأة ومع ذلك فإن عملية النقد بكل مشاكلها وعلاقاتها المريضة إذا بذلت داخلها ومن أجلها الجهود تستطيع أن تلعب دورا أكثر فعالية وأهمية مما يحصل الآن وتستطيع بالتالي أن تساعد الرواية وأن تقودها، وحتى ذلك الوقت سوف نسمع أشياء كثيرة وسوف تبقى العلاقات الشخصية هي الأساس وسوف يبقى الكثير من الأعمال في زوايا مظلمة.

إن ديستوفيسكي خلقه ناقد أول مرة من خلال خلق الناقد له بدأ يخلق نفسه أما لو كان ذلك الناقد جاهلا أو كسولا أو أنانيا فإن ديستوفيسكي كان مضطرا لأن ينتظر وقتا طويلا لكي يقدم روائعه أو ربما لم يقدمها أبدا..

من هنا تبرز أهمية دور النقد وفعاليته ومدى تأثيره في خلق القارئ والكاتب معا وبالتالي في خلق البيئة وبدروها إلى وجود لوكاتش وغيره.

حوار مع مناضلة فلسطينية. الحياة تبدأ من الضفة الأخرى لليأس

يا دارنا يا أم الحجر الأحمر	إحنا رحلنا وغيرنا الوطن
يا دارنا يا أم الحجر والطوق	يا عليا ومشروعها لفوق
يا دارنا يا اللي ربيتينا فيكي	لا عادت تأوينا ولا تأويكي
يا دارنا إن نزولك غربا عنا	إلو حيبيبهم يا دار حتي نعاود

ليس مهما ذكر اسمي، سأبدا بحسابات الربح الكثير، والخسارة، تتدخل علامتا زائد وناقص في رحلة العمر بشكل مثير، لأضع أولاً ما ضاع أمام علامة ناقص ضلعان من الصدر، جزء من المعدة، طحال، جزء من الأمعاء الدقيقة، مساحة من عضلات البطن، أجزاء متناثرة ضمرت من الجسم، أحلام مستحيلة التحقيق، أمام علامة زائد وصل في الأمعاء فرحتان بالمعدة حزام للبطن لا أستطيع الحياة بدونه لحظة واحدة، تعليمات صارمة تنظم كل ما في العمر والمشي والأكل والنوم، وحتى الضحك والبكاء، تلال من الهموم والأحزان قلت في البداية، ليس مهما ذكر اسمى هأنذا أقول ليس مهما أن أحكي حكايتي، وما قيمة كل شئ لقد

وصلت إلى الضفة الأخرى لليأس مهما أقنعتني بجدوى الحديث فالصمت سلوى وعزائي وزادي.

لا يحتاج المتحدث إلى تقديم، والحديث التالي جرى في حجرة صغيرة، مزدحمة وتائهة بمستشفى النيل الجامعي على مدى أيام وليالي طوال، لا أدرى كم عددها، تعرضنا فيه للكثير من الموضوعات، في شئ من التعب والفوضى والضنى، ولم تكن موضوعات الحديث عن النضال والثورة الدائمة واستراتيجية الدفاع والهجوم ولم ينزلق من فوق لسانها كلمات كبيرة الحجم لم تقل تعريب فلسطين أو فلسطنة العالم العربي.

وكان للحديث معها مفردات أخرى ، حياتها الخاصة، الميلاد، سنوات الشباب في فلسطين، العمل الفدائي، الوشاية بها، القبض عليها، العذاب والتعذيب والضنى داخل سجون العدو الصهيوني ثم الحضور إلى القاهرة للعلاج، في ليالي كثيرة كنت أجلس بجوارها، فوق سرير سفرى صغير في حجرة تطل على نيل مصر، وكانت ملاحظاتي تتحول إلى أسئلة والأسئلة إلا علامات استفهام جارحة، وعلامات

الاستفهام إلى رحابة من العواطف والمشاعر، كنا في رحلة بحث حول بعض المعاني البسيطة، وأولها بطولة الإنسان.

ورغم بساطة الكلمات فلقد أحسست بشئ ما بداخلها، أنه الأرض لا يمكن أن يعد شعب إلى وطنه إلا أن وجد أرضاً يعيش فوقها، في التاريخ قبائل داست العالم من أقصاه إلى أقصاه، صالت وجالت، كالمغول، ولكنها ليست شعوباً إذ لا شعب بلا أرض.. وإسرائيل قد تسمح بأي شيء. ولكنها لن تسمح بأن تتحول فلسطين إلى أرض.

باختصار دعونا من الكلام، لم يعد يجدى كثيراً، دعونا نستمع إلى مناضلة فلسطينية، عادت أخيراً من سجون العدو الإسرائيلي ولتطرح منذ البداية، الطريقة التقليدية في عمل حديث صحفي، حيث تتحول المسألة إلى ذكاء في طرح السؤال، وفهلوة في استخلاص الجواب فقط، سأدون هنا ما قالته، بدون نظام وبدون ترتيب.

تقول ولدت في عام المحنة الأول وأسأل أي المحن تقصدين؟ فترد بصوت يقطر أسى: وأي الأعوام خلت من المحن؟ يبدو لي تساؤلي في مرارة هذا الزمان: تقول ولدت في العام الذي فقدنا فيه أرضنا في سنة ٨٤٩١، لا أذكر جيداً

السنوات الأولى، دهشة اكتشاف العالم، فتح الذراعين بحب يصل لحد الجنون في عناق دنيانا، الأب والأم والأخوة.

تسأل: أين هم الأهل الآن؟ البعض في حيفا وإلى ليبيا سافر آخر الأخوة، وهنا في القاهرة واحد يستعد للسفر إلى ألمانيا، أما أكبر الأخوة لم تبق منه إلا آية صغيرة مكتوبة بدقة، كتبها قبل استشهاده في حرب الخامس من حزيران.

هل تطلب منى أن أعيد سرد حكايتي؟ لا أعتقد أن ذلك مطلوب، الحديث عن البيارة والزيت والزيتون والزعتر لن يجدي كثيرًا رموز كثيرة قد نكررها للعالم فقد أهميتها، القرش من كثرة الاستعمال، تذوب ملامحه ويصبح قطعه من الحديد أو النحاس لا قيمة لها وهكذا رموز حياتنا كلها، حمامة غصن زيتون، رمز عن السلام، الخيمة القديمة على بابها طفل صغير بيده طبق فارغ، واليد الأخرى ممتدة نحو العالم، قلت لك لن يجدي هذا كثيرًا.

تبدو لي الآن، سنوات الصبا والشباب، كحلم البيت، هواس ساعة العصاري وهدوء وقت الغسق، الأرض والدار، خضرة المزروعات وزرقة السماء، أيام الشباب، لحظة سعادة يتيمة ووحيدة وقصيرة بمساحة دقة القلب، كل الوقت

دقة قلب بدأت بها سعادتي، وبها انتهت أيضاً، ما قيمة أن أذكر اسمه أو عمله، كنت أسأل عنه كل مساء، اللهفة الشوق والحبور ثم ماذا ينبض القلب، لم يعد يستطيع حتى أن يبكي، تجمد الدم في العروق، وتلونت الدنيا بلون التراب.

لم يبق بعد هذا سوى «ارض» فلسطين تزوجتها، كانت حبي وأملي وعزائي وسلواي لا أستطيع أن أفسر كيف تم الأمر، ولا متي، ذات صباح حضر إلى أخي، طلب مني الاستعداد للذهاب في اليوم التالي إلى مكان للتدريب، لم يقل كلاماً كثيراً، أنجز الصمت كل المطلوب بيننا، هناك اكتسبت الأشياء أسماء جديدة، المكان يسمونه المعسكر، القنابل «تفاح» وهكذا عشت لذة الاكتشاف الأول وكان عالمي مثقلاً بكل الاكتشافات الرائعة والمدهشة، صدقني أرجوك، قد تسأل: لم فعلت هذا، وأقول لك: عندما فعلته لم أدرك معنى ما يحدث ولكني أقول لك ببساطة وجدت نفسي، وجدت الكلمات التي أشرح بها ما بداخلي، ففى عمليتنا الأولى، كنت مكلفة بمهمة، وأتممتها مع بعض الزملاء، وعندنا سالمين، وفي العملية الأولى عثرت على حقيقة كياني الجديد. ووضعت يدي على هذه الحقيقة، كنت قد تعديت العشرين

بسنوات قليلة، وكانت أهم الحقائق أن أنوثتي ذلك الكيان المتفجر بداخلي تحولت إلى مسارات أخرى، لم أعد الرفيقة أو الزوجة أو الحبيبة أو العشيقة، أصبحت شيئًا آخر، مساوياً للرجل، أعبر عن وجودي وتفجيري من خلال إبداع كل يوم وعندما تتلاقى النظرات أو تصطدم الأيدي كنا نكتشف أننا في غيبوبة عن أنفسنا. كانت هناك الأرض، أنستنا كل حقائق حياتنا الصغيرة.

الثانية والنصف تمامًا.

ما زلت أذكر هذا جيدا. للوشايةرائحة لا ينكرها الأنف ولا يخطئها الإنسان، ومن العتمة خرجت ملامح اثنين، كانا يتكلمان بلغة أهل بلدي، القيا تحية السماء، قالا كلاماً عن فلسطين والمقاومة وعن الغربة والخيام البعيدة ثم سارا على أن يعودوا مرة أخرى.

لم استرح لكلامهما، في الثامنة والنصف حضر من قبضوا على، تحت السرير وجدوا عددًا من التفاح، معذرة، فقابل وعشر طبنجات وكمية من الذخيرة ومدفعين، هل ستطلب مني وصف ما حدث داخل سجون إسرائيل، لن يكون هناك جديد في كل ما أقوله، ولكي تدرك معنى هذا

فاعلم أنه أجريت لي ٦٢ عملية جراحية في كل أجزاء جسمي عدا الجراحات السريعة داخل أسواء السجن ثم إن ما حدث لم يحدث لي وحدي بل لكل الذين يقبض عليهم من أبناء فلسطين، وهذا يحدث كل يوم، بل ويحدث الآن، وسيظل يحدث في مستقبل أيامنا. ما الفائدة؟

استجوابات. سيل لا ينتهي من الأسئلة، ولكن السؤال والجواب مع من تعملين، اسمك، سكنك، الجهة التي تمولكم، الاسم الحركي والدفتر، والوثائق التي معك، أين هي، الأسماء التي بداخل ذاكرتك، قوليها اسماً اسماً، الموت أو الاعتراف، والموت هنا ليس إغماضة عين بل تعذيب متصل، الموت يأتي ويدخل الجسم، على مدى العمر كله، الموت بالتقسيط تكلمي، وعندما بدا أن صمتي حقيقة، بدأت قائمة التعذيب، تراب أسيا يموت في عيني، مياه أنهار تبخرت ويتبخر معها الكثير، الأحذية العسكرية الغريبة الصنع تدوس حياتنا وكرامتنا، أشجار بلادي كلها أصبحت أشجار صبر لا يميتها الجوع أو العطش ولا تحرقها الشمس.

الضرب باليدين، أياد غلاظ، الضرب بالعصى، أنواع كثيرة من العصى، طويلة وقصيرة مدببة وحادة، العصى من

الحديد، الحديد الساخن، الحديد الأحمر من كثرة التدخين، إلى هنا ينتهي بند الضرب، ليبدأ بند آخر، لك، تقليع الأظافر، تقليع الشعر، التشريط في أكثر من مكان بالجسم، الجلوس ليلة كاملة في مياه باردة، النوم طوال الليل في حجرة صغيرة مع كلبة وأولادها الصغار.

سألت نفسي في أول ليلة وأنا أستمع لنشرة الأخبار تأتي من بعيد، العالم قد نسينا، لا يذكر عالمنا إلا عندما نحاول أن نجرب الحياة أو نحاول أن نجرب الموت قلت بصوت مهزوم عالمنا مدجج بالسلاح ونحن مدججون بالقيود.

ذهبت إلى المستشفى وعدت، ثم ذهبت وعدت، سافرت إلى أمريكا للعلاج وعدت، وكان واضحاً أن دائي لم يكتشف له طبيب بعد، الجوع والعطش في الصحراء، الموت، الحلم في العراء.

ثم كان الحضور إلى مصر، أملاً حقيقيًا لي، بدا لي ميدان التحرير قبلة الدنيا، حضرت إليها من قبل، ولكنها تظل لنا الكعبة والأمل والملاذ.

حكايتي مرة حزينة الختام، فمعذرة، هل أعيد على مسامعكم حسابات الربح والخسارة مرة أخرى ، ولكن لنتكلم عن فلسطين قليلاً، دعك مني، أرجوك، لا بد وأن تحمل فلسطين بداخلنا في كل نقطة دم، في كل قطعة لحم، في أهداب العيون، لنؤكد للعالم أنها موجودة، وأن كلمة إسرائيل ترجمة عبرية لها فقط لا بد وأن يصبح علم فلسطين بألوانه، الأخضر والأسود والأحمر شكلاً من أشكال عناق الألوان من أجل فلسطين، يجب ألا تحول: خريطة بلدنا إلى رسم تجريدي أمام العالم.

اسمع: لقد فقدنا الأرض والهوية الرسمية والبيت والحياة الآمنة ومصدر الرزق، وهذا ليس سيئاً، فلم يعد لدينا ما نخاف عليه سوى الحياة نفسها، وهي بهذا تعدو خفيفة ورخيصة، وتبدو التضحية بها عملاً عادياً، لننه هذا الحديث المر بسؤال، ما هو الموطن؟ حيث ولدت حيث تموت ، حيث تدفن، حيث كانت معاناة كل يوم، حيث شعرت بالجوع والتعب والرغبات أحببت وكرهت حيث تعبت وشعرت بالرغبة في الراحة.

هل أدركت إذن مأساتنا – اسكت وحياة الله؟

سؤال وجهته إلى نفسي، لم كل هذا الحـديث الطـافح بالمرارة؟ وما جدوى إصداره ونشرة؟ وقلت لنفسي ببساطة، لنثبت مصائر هؤلاء الأبطال المجهـولين فـي أوراق هـذا الزمان ليكونوا إدانة، ولا صرخة احتجاج، بل ليكونوا مرثية طويلة، طويلة لعالم القرن العشرين.

الدكتور طه حسين يقول:

اللغة العربية تمر الآن بأزمة حادة

على مدى خمسة عشر يوماً عقد مجمع اللغة العربية بالقاهرة الدورة (٩٢) ليناقش أعضاؤه مصطلحات الفيزقيات النووية والمصطلحات الاقتصادية والمصطلحات الكيميائية والجيولوجية وتلقى فيه الأبحاث التي تتناول قضايا اللغة العربية وربما كان من المعتاد في كل دورة أن تقرأ في الصحف اليومية خبر بدء دورات المجمع وخبر انتهائها وما تم إنجازه من الأعمال ثم نمر عليها مر الكرام كأن الأمر لا يعنينا وتظل أعمال المجمع وإنجازاته في النهاية سراً خاصاً بالمجمعيين وحدهم رغم أن ما يناقشونه متصل بنا، بحياتنا، بوجودنا نفسه، إنه اللغة التي نتفاهم بها، ورغم أهمية لغتنا أو قضاياها فلا يوجد لها في العالم العربي كله سوى ثلاث مجامع فقط مجمع القاهرة وهو أقدمها حيث أنشئ سنة ٢٣٩١ ثم مجمع في بغداد وآخر في سوريا، إذا كانت اللغة هي ما يخص المتكلمين بها جميعًا مهما كانت درجة اختلافهم فلا بد وأن تكون دورة المجمع مناسبة لحديث قد يطول عن لغتنا.

وكان الحديث مع عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ليس

بصفته رئيسًا لمجمع اللغة العربية فقط بل باعتباره أباً وأستاذاً ورائداً من رواد الأدب والفكر العربي.

سألته:

- **لماذا لا يقام مجمع واحد للغة العربية في العالم العربي كله؟**

فسألني:

-وهل تمت الوحدة السياسية بين دول العالم العربي حتى الآن؟

ثم أكمل:

-عندما تتم الوحدة السياسية لا بد وأن يتبعها توحيد مجامع اللغة العربية الموجودة بمعنى أن يكون هناك مجمع واحد للغة العربية في العالم العربي كله.

- **وإلى أن يتم ذلك، بم يهتم هذا المجتمع؟**

-باللغة العربية الفصحى فقط نحن لا نهتم إلا باللغة الفصحى حيث أنها لغة واحدة، أما اللهجات المختلفة والعامية فهي ليست لغة.

• حتى ما يكتب أدباً؟

-ما يكتب باللغة العامية وليس ذلك بموجب قانون المجمع ولكن لإننا أساسًا عرب.

وقبل أن أتكلم قال الدكتور طه حسين بصوته العميق ونطقه المعجز للكلمات:

-كان يجب أن نكون أكثر اعتزازًا بلغتنا أكثر مما يحدث. المجمع اللغوي – يقول الدكتور طه حسين أنه يتعب نفسه كثيرًا بتعريب المصطلحات الحضارية وخاصة المصطلحات العلمية ثم لا ينفذ أي شيء مما نقوم به.

• لم،و من المسئول عن هذا؟

-المجمع ليس سلطة تنفيذية ولا أرجو له أن يكون كذلك، لا أطلب له أي سلطة أو اتصال بالجماهير فالمجمع جهة معنية بالبحث العلمي فقط، وعلى الحكومة أن تستفيد بالنتائج التي يصل إليها المجمع وهذا ما لا يحدث والأمثلة كثيرة: حتى الآن في التعليم الثانوي يدرس التلاميذ باللغة العامية لم؟ دار العلوم لها مائة سنة، ماذا عملت باللغة العربية؟ تخرج

معلمين ينقلون الكلام الموجود في الكتب إلى تلاميذهم وكفى، وكل هذا يدل على أن التعليم في مصر سيئ.

- كان يجب أن يصل الإلزام الآن إلى المدارس الثانوية أو الإعدادية على الأقل لو كان الأمر بيدي لفعلت هذا، التعليم أهم الأسس بالنسبة للغة أي قوم، إن الأمية الآن هي الأغلبية في مصر وبالتأكيد هناك أميون جدد ما دام نظام الإلزام ليس حاسماً وهذا ما يقلل من جهود المجمع بخصوص اللغة، إن الأمية سبب لكثير من المشاكل، فالخطباء في المساجد يدخلون العامية في الخطب كي يفهم الناس ما يقولون وفي المدارس في حصص اللغة العربية وفي دروس تفسير القرآن الكريم في الأزهر الشريف كل ذلك يتم من خلال العامية فلم كل هذا؟

- **ودور الجامعات؟**

-أولاً المراجع العلمية لم تعرب كلها ولو تمت ترجمة أهم المراجع العلمية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية لكانت لغتنا هي سيدة الموقف الآن في الجامعة ولكن الحال غير ذلك وأنا أسأل بالتحديد: هل يحدث

هذا الآن في باريس، بمعنى هل يدرس في جامعات باريس بأي لغة أخرى غير اللغة الفرنسية والجواب طبعاً لا. أرفض أن يكون تدريس بعض المواد باللغات الأجنبية مهما كانت الأسباب وخاصة كلية الطب والهندسة والصيدلة ويجب أن يكون هناك إلزام بأن يكون التدريس باللغة العربية وحدها ولا يستثنى هذا سوى الكليات التي تدرس اللغات الأجنبية وحدها.

- **ألفاظ الحضارة التي تعرب بمعرفة المجمع، لماذا لا تستخدم في الحياة العامة؟**

-لا تسلني، سل الحكومة، ما زلنا نقول التليفون والتليفزيون والأوتوبيس رغم أن بعض الدول العربية مثل الكويت والعراق تقول الهاتف والحافلة والإذاعة المرئية، إن مهمة المجمع تقف عند حدود النشر فقط والمفروض أن تقوم وزارة التربية والتعليم العالي والثقافة والإعلام بعمل شئ لأنها المسئولة.

- **ومجامع اللغات الأخرى في العالم، هل تتصلون بها؟**

-لا يوجد أي اتصال بين مجمع اللغة العربية في القاهرة ومجامع اللغة الأخرى في العالم في باريس لا

يعرفون عنا أي شيء والمطلوب تنظيم ذلك الاتصال ففيه كل الفائدة.

- **وجهود المستشرقين لدراسة اللغة العربية؟**

-المستشرقون لا يهمهم إلا نقل ما في االلغة العربيـة وكل جهودهم تتم لصالح لغاتهم أصلاً وليس لصـالح اللغة العربية وكل الفائدة التي تعود على اللغة العربية هي انتشارها خارج الوطن العربي فقط.

وأسأل الدكتور طه حسين عن مشاكل وقضايا المجمع ويقول على الفور:

-يجب أن يكون للمجموع استقلال خاص من الناحيـة المالية والإدارية فكل شيء مرهون بموافقة الثقافة ثم الخزانة، كما نود الاهتمام بإحياء التراث، تراث اللغة العربية ونشره وتقديمه من الدراسات اللازمة، ولكـن الميزانية حالت دون ذلك.. كان آخر مـا قالـه لـي الدكتور طه حسين:

- اللغة العربية تمر الآن بأزمة وأزمة حادة.

- والمظاهر علاوة على ما سبق – كثيرة ما يتـرجم الآن ردئ والسبب عدم إجـادة المتـرجم للغـة الأم

المترجم إليها، أقصد العربية، ما يكتبه الأدباء الشباب، والسبب أيضاً اللغة، لم ينالوا التعليم الكافي من ناحية اللغة.

مرغما تركته فكان بودي أن أسمع عنه أكثر.

مشاكل المجمع نعود

الآن إلى مجمع اللغة العربية حيث تعقد الدورة (٩٢) إلى من يحضرها، علاوة على أعضاء المجمع المصريين ٥١٠ عضواً من الوطن العربي يجمع بينهم الاهتمام باللغة العربية وقضاياها.

كان لقائي مع الدكتور إبراهيم مدكور الأمين العام للمجمع والموضوع: مشاكل المجمع، المبني يقف على رأس قائمة المشاكل، المبنى الحالي مبنى منذ أكثر من أربعين سنة، والمطلوب مبنى آخر وبالفعل خصصت قطعة أرض لإقامة المجمع الجديد لكن الطريق لا يزال طويلاً، الإجراءات لا تنتهي عند حد ثم – يكمل الدكتور مدكور – التقصير الكامل من جهة أجهزة الإعلام، من الممكن أن تقوم أجهزة الإعلام بدورين، أن تساعد على تنقية لغة الناس ثم توصل ما يقوم به المجمع من جهود وأبحاث وأكبر عدد

ممكن من الجماهير وهذا ما يجب أن تقوم به أجهزة الإعلام كلها ونحن ندرك مدى تقصير وسائل الإعلام عندما نعرف أن مجلة المجمع ومطبوعات المجمع وكتبه تنشر وتتداول خارج مصر أكثر من داخلها.

وأخيرًا نطالب ببعض السعة في اعتمادات المجمع، فرسالته التي يقوم بها تفرض ذلك وتتطلبه حيث لا تقف الميزانية وبنودها عائقاً أمام أعمال هامة للمجمع مثل الاطلاع على كل ما ينشر في الخارج عن اللغة العربية وعمل الدراسات والبحث عن تراث اللغة العربية وأحياء مسابقات المجمع للأعمال الأدبية كل عام بشكلها القديم.

جبر إبراهيم جبرا

- إن تجربة الفلسطيني هي تجربة القلق.
- لن أشعر بالاستقرار إلا في فلسطين وطني، وذلك بالشكل الذي نريده نحن وليس بالشكل الذي تقرره أي قوة في العالم.
- إن فكرة الفصل بين التدفق الإبداعي لدى الفنان وبين الثقافة والعلم فكرة بدائية جداً.
- النقاد قلة شديدة وهم فئة صعبة الإرضاء.
- نحن نعيش عصر التداخل بين كل الفنون المختلفة.
- يستجيب العربي للشعر بحرارة أكثر من استجابته للفنون الأخرى.
- لدى إحساس بأن الكلمة المكتوبة تخوض معركتها الأخيرة.
- أتيت إلى هذا العالم وأنا متعدد الاهتمامات ولا أستطيع أن أعيش بدون هذه الاهتمامات.

معرفتي به لها قصة لا بأس من روايتها هنا، ومن أن تكون هي المدخل الطبيعي لحديثي الطويل الذي أجريته معه على مدى جلستين، في منزله الأنيق بحي المنصور، أفخر أحياء مدينة بغداد، والذي حدث أنه في سنة ٩٦٩١م صدرت روايتي الأولى «الحداد» في مصر في مطبعة محدودة فقيرة، معنى بالكلمة المكتوبة، في وطننا العربي، خاصة من له اهتمام بفن الرواية وأرسلت الرواية إلى الكثيرين، أعطاني عناوينهم غالي شكري.. ورحت أنتظر، وكان الوحيد الذي رد على في رسالة مطولة هو جبرا إبراهيم جبرا، من يومها ونحن نتبادل الرسائل، ونشأت بيننا على البعد صداقة من نوع غريب. ولهذا عندما سافرت إلى بغداد كان من أهم وأول مشروعاتي أن ألتقي به، وتم اللقاء.

وتكرر اللقاء، ولم يكن من حديث في هذه اللقاءات سوى عن حال عرب سنة ٧٧٩١ وأشهد أنه كان متفائلاً فهو عائد من رحلة طويلة إلى الجانب الآخر من عالمنا، عائد من أوروبا وأمريكا، أما أنا فمغروس هنا في القاع، كل يوم أفطر على خلافات وتمزقات وشتائم العرب، كانت نظرتي متشائمة، ولكنه كان متفائلاً إلى أبعد الحدود، بل قال لي إن

المستقبل في عصرنا للعرب دون سواهم وأعتقد أن تلك كانت حالته أيضاً وعندما التقيت به منذ عامين مضيا في بغداد أيضا، وربما بعيداً عن الأضواء حياته جادة ولا أعتقد أن فيها ما هو أكثر من العمل المستمر، وفي الحقيقة إن نشاط جبرا إبراهيم جبرا في ميدان أو ميادين الأدب ملحوظ بصورة غير عادية، له في الرواية ، «صراخ في ليل طويل» «والسفينة» وستصدر له عن وزارة الإعلام في بغداد قريبًا روايته الثالثة: «البحث عن وليد مسعود» وكتب القصة القصيرة: صدرت له «تمزق». وكتب الشعر، له أكثر من ديوان شعري جيد، وكتب الدراسة النقدية: له «الرحلة الثامنة»، «النار والجوهر» هذا فضلاً عن الترجمات الكثيرة، ترجم رواية «وليم فوكنر» الصخب والعنف، وترجم مسرحيات شكسبير، وآخر ما صدر له كتاب ارمند ويلسون «قلعة أكسل» هذا فضلاً عن رواية له كتبها بالإنجليزية وصدرت في لندن منذ سنوات، وترجمها الدكتور عصفور، وصدرت بالعربية لأول مرة منذ ثلاثة أعوام، لا يمكن في هذا المقام أن نغفل اهتمامات جبرا بالفن التشكيلي، له كتاب عن الفن التشكيلي المعاصر في العراق، ودراسته الشهيرة

عن نصب الحرية للفنان جواد سليم، جلست معه كان عائدا من أمريكا تواً من رحلة طويلة إلى الجانب الآخر من عالمنا.

عن الرحيل والنقد البنيوي

- **سألته: ما هو الجديد أدبيًا هناك في الولايات المتحدة الأمريكية؟**

-كان هدفى من الزيارة هو جعل الأدب العربي المعاصر مادة حية معاصرة خاصة أن هناك حالة رفض لدراسة الأدب العربي على اعتبار أنه موضوع محير وصعب هذا على الرغم من وجود حركة نقدية طاغية فيها إعادة تقييم لكل شئ من أقدم ما كتب وحتى أحدث ما يكتب، إن هذه الحركة النقدية من الممكن أن يقال إنها حركة النقد البنيوي، واعتقد أن الحركة البنيوية قاربت على نهايتها، أنهم يدرسون هناك الأعمال الكبيرة وهذا النقد البنيوي ليس جديداً ولكنه بدأ في فرنسا في الخمسينات ووصل إلى أمريكا في السبعينات والنقد البنيوي يحول العمل الفني إلى فئات من أنواع مختلفة سواء كانت لغوية أم فكرية ثم

محاولة إيجاد الروابط بين هذه الفئات، أنها تتعامل مع قسم كبير من العناصر التي تكون بنية العمل الأدبي وكل عنصر يبدو كلغة أخرى وتكاد أن تكون مثل الشفرة وعند ترجمة الشفرة هذه تتوصل إلى معاني إنسانية قد لا تكون واردة حتى في ذهن الكاتب نفسه خلال العلمية الإبداعية نفسها، ولذلك فإنها تعتمد كثيرًا على الأيديولوجيا وهي مدرسة أنثربولوجية تعتمد على علم النفس التحليلي، هناك في أمريكا الكلمة المكتوبة تتعرض لخطر رهيب من وسائل الإعلام الحديثة خاصة من الإذاعة المرئية والكلمة المكتوبة تتراجع، وأنا عائد ولدي إحساس ما بأنها ربما كانت تخوض معركتها الأخيرة ولكن ارتفاع نسبة المتعلمين هناك يجعل الخطر أقل إذا قورن بالخطر عندنا هنا، فالأمية لدينا لا تقارن بنسبة تواجدها في أي مكان من عالم اليوم في أوروبا الوضع يختلف، لا يمكن أن نقول بشكل مطلق أن الكلمة المكتوبة تتعرض لخطر ما لأن الكلمة المكتوبة في حد ذاتها لا تعني أحداً، إن هناك من الوعي ما يجعل الأساس هو: من يقول

الكلمة المكتوبة وليس الكلمة بشكل مطلق وهناك في ميدان الكتاب السياسي له وجود، وهذه الحال عندنا أيضاً ولكنها في وطننا العربي تشكل حالة مرضية لأن الوطن العربي يخلو من النقاد والمعلقين الذين يقررون الجيد من الردئ نحن نحتاج إلى منطق لأن العملية المنطقية اضطربت عندنا.

القلق الفلسطيني

- **ماذا تفعل هذه الأيام؟**

-انتهيت من روايتي الجديدة «البحث عن وليد مسعود» وستصدر قريبًا وكان لدي ديوان من الشعر عنوانه «لوعة الشمس» وهو لم يصدر بعد وفي الوقت نفسه أجمع مقالاتي النقدية التي نشرت متفرقة ولم تصدر بعد في كتاب.

- **ألا يعد ذلك اهتمامات متفرقة؟**

-أشعر أن كل ناحية من حياتي تعززها الناحية الأخرى وتغذيها، لقد أتيت إلى هذه الدنيا وأنا متعدد الجوانب والاهتمامات وأنا الآن لا أستطيع أن أعيش

بدون هذه الاهتمامات المختلفة والمهم الآن ألا تنشط ناحية على حساب الأخرى.

• ألا يعبر ذلك عن قلق ما؟

- بالفعل فأسميه أنا القلق الفلسطيني، إن تجربتي الفلسطينية هي تجربة القلق، في النهاية لن تستقر حياتي ولن أشعر بالاستقرار إلا في وطني الأساسي فلسطين، وذلك بالشكل الذي نريده نحن لا كما تحبه أية قوة ما في هذا العالم مهما كانت قوتها، أنا أشعر أن فلسطين كان يمكن أن تكون قوة هائلة لو تحقق لها ولنا الحلم، لو كانت دولة مستقلة من العشرينات، إنني منذ فترة الظلام والمأساة ورغم ما حدث، رغم عمق المأساة فإن الفلسطيني لم يتنازل عن حقه في أن يكون مبدعاً وخلاقاً ليس على المستوى الفلسطيني فقط بل على مستوى الوطن العربي كله، هذا هو الشيء الهام في خلفية الذهن لدى الفلسطيني، إن مشكلة الفلسطيني الآن تتطلب منه أن يتخطى الأزمة وهذا هو المطلوب.

العودة إلى الأدب.

• لماذا كان الشعر هو الفن الأول الذي عبر عن مأساة الفلسطيني؟

-هذا سببه في تصورى أننا – نحن العرب – أتقنا فن الشعر بصورة أكثر نضجاً من الفنون الأخرى، وربما كان التصور النظري أن الرواية قد تكون أقرب إلى التعبير عن المأساة من الشعر ولكننا لم نتقن فن الرواية بنفس الدرجة التي أتقنا بها فن الشعر، الفن الروائي عندنا في مراحله الأولى ، نحن ما زلنا نتعلم كيف نكتب رواية هذا مع احترامي لكل الأخوة المصريين، هذا فضلاً عن أن العربي يستجيب للشعر بحرارة قد لا يستجيب بها لأي فن آخر – في «السفينة» كنت أكتب رواية ومع هذا تحولت المسألة إلى نوع من التصور الشعري ومع هذا أرى أن الرواية قد تكون أقدر على تصوير القضايا العربية في المرحلة المقبلة، وعندنا عدد كبير من الشبان يحاولون الآن كتابة الرواية وليس القصة القصيرة ومع هذا فإن صدور رواية واحدة لا يكفي لكي نقول أن هناك رواية فلسطينية تعبر عن المأساة، لا بد من

صدور أكثر من عمل روائي حتى توجد حركة روائية كاملة، وإذا تكلمنا عن العالم العربي ككل فسنجد أن حركة الشعر أنشط الفنون وهذه الظاهرة أكثر وضوحاً في العالم الغربي رغم أن العالم الغربي عانى من إفلاس في الشعر بعد الحرب العالمية الثانية وهي الفترة التي انتعش فيها الشعر في الوطن العربي وأصبح وسيلة كشف عن أعماق الإنسان ونفسيته وهكذا بقى الشعر في الوطن العربي هو الصوت المنفرد للإنسان سواء أكان صارخاً في البرية أم غير صارخ.

- **لماذا نتحدث عن الشعر والرواية مع أننا ندخل عصر ذوبان الفروق بين الفنون المختلفة؟**

-ليس المقصود هو ذوبان الفروق بين الفنون ولكن المقصود هو التداخل بين الفنون بلغاتها المختلفة هذه ظاهرة سليمة. الموسيقى تدخل في لغة الرسم ويستعير الشعر من الرسم والموسيقى والرواية بعض خصائصهم الفنية ويستمد الناقد من هذه اللغات جميعًا ويضيف إليها التحليل النفسي أو التحليل الأيديولوجي.

هذا كلها ممارسات إبداعية بينها قاسم مشترك كبير أو قواسم مشتركة كبيرة مع استفادة من كل الفنون الأخرى، ، إن الناقد عادة يقول أشياء قد لايستطيع الفنان المبدع أن يقولها ونفس الكلام يقال عن الخلق، هناك روائي كل استفادته كانت من الشعر، بالتحديد من التركيب الشعري، والقصة القصير استفادت من التركيب الشعري وكثير من الكتاب استفادوا من معرفتهم بالموسيقى والرسم وكثير من الرسامين كتبوا، الفنون تستفيد من بعضها البعض ولذلك أقول: إن تعدد جوانب العملية الإبداعية للشخص الواحد أمر غير غريب والفوارق الشكلية تعطيك فناً آخر، لكن كل الفنون المختلفة تقول الشيء نفسه.

الإبداع والثقافة

- **ألا تؤثر الثقافة الواسعة للفنان على تدفق العملية الإبداعية بتحديد أكثر أشعر خلال متابعتي لإبداعك الروائي والقصصي والشعري أن ثقافتك أثرت على التدفق الإبداعي لديك. ما هو رأيك؟**

-في الإبداع جانب تلقائي لا يمكن أن يكون مفتعلاً ولكن هذا الإبداع قد يكون مثقفًا ومليئًا بالعلم والتجربة. من الممكن أن يكون الإنسان تلقائيا ومثقفا في نفس الوقت وكل الكتاب الكبار في تاريخ الأدب كتبوا أدبهم عن امتلاء ثقافي، أبو نواس والمتنبي كتبا عن امتلاء حياتي ومن خلال كثافة متعددة الجوانب تجعلهم خلاقين أندادًا من نوع خاص، إن فكرة الفصل بين التدفق الإبداعي التلقائي وبين الثقافة والعالم فكرة بدائية جداً، الإنسان الفنان يجب أن يكون متميزًا وهذا التميز لايأتي إلا من الثقافة الواسعة ثم لماذا نبتعد كثيرًا بهذه الصورة، إن إبداع الإنسان هو شخصه بنفسه الإنسان هو ما يكبت في النهاية، الأسلوب هو الثقافة والحس والحلم والإنسان من الصعب تصنيفه من الداخل. لا يمكن أن نخلق فاصلاً بين إبداعه وثقافته. الثقافة معناها أن تأخذ العود الأعوج وتعدله، كلمة تثقيف معناها أن تجعله صالحاً للعمل، كل ما حصلته من الثقافة عبارة عن موروث يقف خلف جبرا إبراهيم جبرا، وأنا لا أريد أن أكون إلا أنا. ولا

أحب أن أكذب على نفسي ولا على الآخرين إن هدفي الأساسي عندما أكتب هو الصدق مع النفس والصدق مع الآخرين، إنها مسألة معقدة ولكن العملية كلها تسير على هذا المنوال.

من أنت؟

سألته فجأة؟

- **من أنت بالتحديد؟**

- ولدت في بيت لحم وحصلت على التعليم الإبتدائي في بيت لحم، والتحقت بمراحل التعليم الأخرى في القدس، بالتحديد في الكلية العربية في القدس ثم ذهبت في بعثة إلى إنجلترا، درست في جامعة كمبردج، بعد التخرج رجعت وعملت بالتدريس بالكلية الرشيدية بالقدس في جامعة بغداد ثم عدت إلى استئناف الدراسة مرة أخرى وعملت فترة طويلة من الوقت في جامعة بغداد بكلية الآداب خاصة في القسم الإنجليزي وعملت في المتحف ووزارة النفط، وأخيرًا عملت مستشارًا في وزارة الإعلام العراقية، وخلال هذه المراحل كانت كلمة «فلسطيني» هي كل حياتي. إنني أقول لك

لو لم أكن فلسطينيًا لم أكن شيئًا يذكر، تراب بلدي وحجارته في دمي، في شراييني، إن الدفاع من أجل فلسطين هو دفاع من أجل الإنسانية كلها، في كل مكان من الأرض كلها.

- **هل أنت منتم سياسياً؟**

-كلا، أنا غير منتم أو لنقل المسألة بشكلها السليم، أنا غير منخرط أو منضم من الناحية السياسية، أي إنني غير مرتبط بشكل مباشر من الناحية السياسية بحزب ما، وهذا نابع من أن الجهد المطلوب مني، جهد فكري أكثر منه سياسي، بمعنى العمل السياسي المباشر، إن ما حققته من أجل فلسطين ومن أجل الإنسان بهذا المعنى أكثر، بعض الناس تختلف معي، ويقولون إن العمل السياسي المباشر ربما كان أجدى، وأنا أقول إن الواقع يحتاج إلى الإثنين معاً، ودور الفكر هو دور فعال له نفس خطورة دور الرجل السياسي، والنشاط السياسي، ومما يزيد من أهمية دور الفكر، أن الفكر ستبقى قوته فاعلة خلال الأجيال

التالية ولفترة طويلة من الزمان، على نحو قد يفوق العمل أو الفعل المباشر.

والنقد الأدبي

- **هل يمكن القول بوجود حركة نقدية تواكب الإبداع العربي وتصل إلى مستواه؟**

-الحقيقة إن النقاد الكبار في كل آداب العالم قلة شديدة إذا قورنوا بعدد المبدعين في هذا الأدب أو ذلك والناقد الحقيقي أو الناقد المؤثر يجب أن يكون مثقفًا ولديه موهبة تلقائية في فن التعامل مع النص الأدبي، الوضع في النقد الأدبي العربي يبدو على النحو التالي، لدينا تيار هائل من الإبداع الأدبي. خاصة ما يقدمه الشباب من الروايات ومجموعات القصص ودواوين الشعر وهؤلاء في تصوري لا يجدون النقاد الذين يتابعون أعمالهم هذه بالنقد والدراسة والتحليل وتقديمها لجماهير القراء وقد يكون هناك سبب لذلك، لكي ننصف الحركة النقدية، إن معظم هذه الإبداعات الأدبية والفنية الشابة تبقى عاجزة عن إثارة اهتمام النقاد وهم أصلاً فئة من الصعب إرضائها، قلة النقد لا

تعني فترو أو عدم استجابة النقاد، ولكنها تعني أيضا أن ما يصدر من أعمال أدبية عاجز عن تحريك الجو الأدبي والفكري، إن الكثير من هذه الأعمال مثل الحصى المتساقط في بركة، الحصى الذي يلقي بضجر في هذه البركة، وهذا يختلف عن العمل العظيم الذي يحدث الأمواج الكبيرة وتتطاير المياه في كل اتجاه وهنا لا بد وأن نجد الاستجابة ونجد من يتصدى لمثل هذه الأعمال.

ونحن الآن. على مستوى الوطن العربي كله في انتظار هذه المعجزة.